

روائع الأدب العالمي للناشئين

ثلاثة رجال في قارب

جيروم ك. جيروم



Jerome K. Jerome



ثلاثة رجال في قارب

تأليف: جبريل لند جبريل

تبسيط: ج. هورسلي

ترجمة: د. علي كامل شحاتة

مراجعة: مختار الصبيحي

مقدمة

يتناول هذا الكتاب الفكاهى حكاية مغامرات ثلاثة
من الأصدقاء ومعهم كلبهم ، قرروا قضاء عطلتهم فى
رحلة نهريّة على صفحة نهر التيمس .

ومن الطريف أن أكثر الفكاهة فى هذا الكتاب
تتضمنها حكايات يحكيها الأبطال عن أشياء ومواقف
حدثت لهم وترتبط بصلة ما بما يقع من أحداث أثناء
رحلتهم . ولن تجد من السهل - دائما - معرفة أين تبدأ
هذه الحكايات أو أين تنتهى . فقط عليك أن تكون على
استعداد لقراءتها والاستمتاع بها .

وقد عاش « جيروم » - المؤلف - في الفترة من ١٨٥٩ حتى عام ١٩٢٧ وامتهن عدة مهن مختلفة قبل أن يحترف الكتابة ، فقد عمل في البداية كصراف في (بنك) ثم مديرا لمدرسة وأخيرا كممثل . وقد ظهر هذا الكتاب لأول مرة عام « ١٨٨٩ » .
الا أن المواقف الطريفة التي يحويها يمكن أن تحدث لاي منا في هذه الأيام . ومن أعمال مؤلفنا الشهيرة ايضا كتاب « افكار تافهة لشخص تافه » ومسرحية « المرور بالطابق الثالث مرة أخرى » .

الفصل الأول

التخطيط لقضاء العطلة

كنا ثلاثة - نجلس فى غرفتى .. جورج وويليام
صمويل هاريس وأنا - ورايعنا الكلب مونتمور ينسى ..
وكنا جميعا نشعر بالتعب وقد اضطربت أعصابنا
فجلسنا أكثر من نصف ساعة نتشاكى ونتحدث عن مدى
سوء حالتنا .. أقصد حالتنا الصحية بالطبع !

حكيت لجورج وويليام هاريس عما أحسست به من
تعب حال استيقاظى هذا الصباح . بينما وصف لنا
ويليام هاريس ما كان يشعر به من آلام حين أوى الى
فراشه ليلة أمس .. أما جورج فقد وقف بجوار المدفأة
وقدم لنا عرضا تمثيلىا يصف الآلمه التى كان يشعر بها

طوال الليل • ان جورج كثيرا ما كان يتوهم أنه مريض
الا أنه في الحقيقة – وكما تعلمون – كان يتمتع بصحة
جيدة لاتشوبها شائبة !

في هذه اللحظة طرقت مسز بوبيت الباب ، وسألت
ان كنا على استعداد لتناول العشاء الآن •• فنظر كل
منا للآخر وابتسمنا في مراة وقلنا أنه ربما كان من
الأفضل أن نحاول ابتلاع شيء من الطعام • واستطرد
هاريس بقوله : « ان القليل من الطعام يساعد دائما في
السيطرة على المرض » •• !

أحضرت المسز بوبيت (صينية) الطعام ووضعتها
على المائدة التي تحلقنا حولها وحاولنا أن نتناول شيئا
من اللحم والبصل ••

وبدا لي انى مريض بالفعل • فبعد أقل من نصف
ساعة زهدت الطعام •• تصوروا بعد نصف ساعة
فقط ! •• وفوق هذا قلم أشعر بأدنى رغبة في تناول أية
قطعة من الجبن !! •• المهم أننا – وبعد أداء هذا
الواجب الثقيل – جلسنا في استرخاء وأشعل كل منا

غليونه وبدأنا نتناقش ثانية فى موضوع سوء حالتنا
الصحية !

لم يكن أى منا يعرف على وجه التحديد أية علة
أصابته ، الا أن رأى الغالب هو أننا ربما كنا نعانى
من الملل والارهاق نتيجة كثرة العمل . فقال هاريس :
- ان مانحتاج اليه هو قسط من الراحة .
والاستجمام .

وأمن جورج على كلامه قائلاً :

- راحة وتغيير شامل . . ان تغيير المناظر والجو
واراحة العقل من التفكير فى العمل هو ما سيريح
أعصابنا المتوترة .

وافقت على ماقاله جورج ، واقترحت أن نسافر الى
مكان هادىء بعيد فى ركن ما فى العالم القديم بعيدا
عن تلك الأماكن التقليدية والتي تزدحم خلال العطلات . .
بل نسافر الى مكان ما شبه منسى نستمتع فيه بالشمس
والهواء العليل والهدوء بعيدا عن متناول يد عالمنا
المزعج . .

فعلق هاريس على كلامي معترضاً وقال : أن مكانا بهذا الوصف سيكون مكانا فظيعا . . . وأضاف : أنه يعرف مثل تلك الأماكن ، حيث يأوى الناس الى مضاجعهم بعد الغروب مباشرة ، وحيث لايمكنك الحصول على جريدة يومية . . . وان احتجت لطباق لغليونك فان عليك أن تمشى عشرة أميال قبل أن تعثر على من يبيعه لك .
وأردف هاريس قائلا بلهجة حازمة :

— لا . . . اذا كنتم تنشدون الراحة والاستجمام حقا فليس هناك أفضل من رحلة بحرية .

فاعترضت بشدة على هذه الفكرة وقلت ! ان الرحلة البحرية لاتكون مفيدة حقا الا اذا كنت ستقضى في البحر شهرين أو أكثر ، لا أسبوعا واحدا . . . وهي فترة قصيرة ستكون عديمة النفع . فما سيحدث هو انك ستبدأ الرحلة يوم الاثنين وانت تتمنى في قرارة نفسك الاستمتاع والترويح . . . وستقف على ظهر السفينة تلوح بكبرياء وافتخار لأصدقائك ومودعيك الواقفين على

رصيف الميناء ، ثم تشعل غليونك الكبير وتتمشى فى
خيلاء على ظهر السفينة يملؤك شعور بأنك كابتن «كوك»
وسير «فرانسيس دريك» و«كريستوفر كلومبوس» ..
كلهم معا فى شخصية واحدة وفى وقت واحد .

ولكن .. وفى بداية يوم الثلاثاء .. ستتمنى لو
انك ماركيت البحر قط ، وفى الأيام الثلاثة التالية ستتمنى
لو انك كنت ميتا قبل أن تقدم على ما فعلت !

ثم وفى صباح السبت تبدأ صحتك فى التحسن
بدرجة تسمح لك بتناول القليل من حساء اللحم
والجلوس على السطح تجيب بابتسامة ضعيفة على
أصحاب القلوب الرحيمة والذين سيسألونك عن
صحتك .

وفى صباح الأحد ستبدأ فى المشى وتناول الطعام .
وفى يوم الاثنين ، وبينما أنت تحمل حقيبتك فى يمينك
ومظلتك فى يسارك وتستعد للنزول على الشاطئ ..
فى هذه اللحظة فقط .. ستشعر أنك بدأت تستمتع
برحلتك البحرية التى أوشكت على الانتهاء فعلا !

اننى اذكر ان اخا زوجتى خرج فى رحلة بحرية
للنقاهاة ، فقطع تذكرة ذهاب وعودة من لندن الى
ليفربول وبالعكس بحرا . وعندما وصل الى ليفربول
كان كل همه هو ان يجد من يشتري منه تذكرة
العودة . .

ورجل آخر أعرقه خرج فى رحلة بحرية حول الساحل
الانجليزى لمدة اسبوع ، وقبل ان تبدأ الرحلة جاءه أحد
موظفى السفينة وسأله ان كان يفضل ان يدفع ثمن
وجبات الطعام كل وجبة على حدة فى وقت تناولها أم
يفضل ان يدفع مقدما لكل الوجبات على مدى الرحلة .

وفضل الرجل ان يدفع مقدما لأنه وجد ان الدفع
مقدما أقل تكلفة . فوجبات الاسبوع كله تتكلف مجمعة
جنيهين وخمسة شلنات . وتتضمن قائمة الطعام السمك
مع البيض فى الافطار ، بينما يقدمون فى الغداء الذى
يبدأ فى الواحدة ظهرا ، عدة أطباق للاختيار من الأطعمة
الساخنة والباردة ، ويبدأ العشاء فى السادسة مساء
ويشمل الحساء والسمك واللحم وخاصة اللحم البقرى
يتبعه قطع من لحم البط والدجاج والحلويات والجبن

والفاكهة .. ثم بعد هذا وجبة خفيفة من شرائح اللحم
في العاشرة مساء .. وعندئذ وافق صديقي ولعابه
يسيل على دفع الجنبيين والخمسة شلنات فقد كان أكلوا
يحب ما لذ وطاب من أصناف الطعام .

وحان موعد الغداء بينما كانت السفينة تقترب من
« شيرنيس » .. إلا أن صديقي لم يشعر أنه جوعان
لدرجة التي كان يتصورها لهذا اكتفى بتناول قليل من
اللحم المسلوق وبعض الفاكهة « والكريمة » ..

وعضى صديقي بعد الظهر وهو يفكر مليا في هذه
الأشياء ، فتارة يبدى له أنه لم يأكل شيئا غير اللحم
المسلوق والفاكهة منذ أسابيع وتارة يحلم أنه لا مفر من
أن يعيش على الفاكهة والكريمة لعدة سنوات

وفي السادسة جاءه من يخبره بأن العشاء جاهز ..
ولم يثر هذا التنبيه الشهى في نفسه التي رغبة ، إلا أنه
أخذ يفكر في الجنبيين والخمسة شلنات التي دفعها ثمنا
لكل الوجبات فقام بصعوبة وتوجه متثاقلا لغرفة
الطعام ..

وصادفته عند نهاية السلم رائحة ذكية لأرائب مطهية
بالبصل ملفوفة برائحة السمك المقلي والخضروات ..
وجلس صديقى الى مائدته وجاءه النادل وسأله :

- عمت مساء ياسيدى .. ماذا تطلب ؟

فما كان من صديقى الا أن قال :

- احملنى خارج هذا المكان بسرعة .. !!

وبسرعة حملوه وصعدوا به الى السطح وتركوه
منتثيا على (درايزين) السفينة حيث أفرغ ما فى جوفه
فى البحر .

وطوال الأيام الأربعة التالية عاش صديقى حياة
الزاهد مكثفيا بقطعة من الخبز الجاف وقليل من الماء
وفى بداية يوم السبت بدأ يشعر بتحسن طفيف فأكل
القليل من الزبد مع الخبز وشرب القليل من الشاي ،
وفى يوم الاثنين ملاً معدته بحساء الدجاج . وفى يوم
الثلاثاء غادر السفينة ووقف على رصيف الميناء ينظر
اليها بحسرة وهى تسير مبتعدة ويقول فى نفسه :

— هاهي ترحل بعيدا . . . حاملة جنبيين وخمسة
شملات ثمتا لطعامي الذي لم ولن أكله أبدا !!

ولهذا — ياسادتي — فأننا أرفض القيام برحلة بحرية
ليس من أجلى أنا بالطبع ، فأننا لم أصب مطلقا بدوار
البحر ، ولكنى أخشى أن يصاب به جورج . . . ولكن
جورج قال أنه لا يخشى هذا الأمر هو بدوره ولكنه
ينصحنا بعدم القيام بمثل تلك الرحلة لأنه يخشى على
هاريس من دوار البحر . . . فقال هاريس أنه بالنسبة له
شخصيا فقد كان دائما يتعجب من هؤلاء الذين يصابون
بما يسمى بدوار البحر . . . وكم تمنى أن يجربه ولو
مرة واحدة ولكنه — للأسف !! — لم يصب به إطلاقا . . .

ثم اخذ يحكى لنا كيف أنه عبر المانش الى فرنسا
وكيف كان البحر هائجا جدا لدرجة أن كل المسافرين
رقدوا اعياء في حجراتهم بينما كان هو والقبطان
الوحيدين اللذين لم يصابا بالاعياء . . . أحيانا كان هو
والضابط الثانى ، وأحيانا هو وأحد البحارة ، ولكن
دائما كان هناك هاريس وشخص ما آخر لم يصبهما

دوار البحر . ثم أصبح هاريس وحده المعاقى بينما
أصاب الاعياء كل من كان على ظهر السفينة !

أوه انه لأمر يثير الفضول والعجب . . . ذلك أن
أحدا لا يصيبه دوار البحر مادام كان واقفا على
المشاطىء !!

المهم . . . انتهى الأمر الى أن قال جورج :

— دعونا نذهب فى رحلة نهريّة .

وأضاف أننا سنستمتع بالهواء الطلق والرياضة
البدنية بالإضافة للهدوء والراحة النفسية ، كما أن
كثرة المناظر الجميلة المتغيرة التى سنمر عليها ستريح
عقولنا وتنعشها وسيجعلنا المجهود البدنى نأكل بشهية
وننام باستغراق . .

وعقب هاريس بقوله أنه لا يعتقد أن جورج يحتاج
لشئ يجعله ينام أكثر مما ينام بالفعل والا وصل الأمر
لحد الخطورة ، خاصة وأن اليوم لايزيد على أربع
وعشرين ساعة ، وعلى أية حال لو أنه نام أكثر مما

ينام الآن فانه يكون كالميت مما سيوفر تكاليف اعاشته
ومؤنته ..

وقال هاريس في النهاية أن الرحلة النهرية تناسبه
تماما ، كما أنها تناسبني أيضا .. وامتدحنا فكرة
جورج النيرة بلهجة بدا عنها اندهاشنا لورود مثل
تلك الفكرة على عقل جورج ..

الوحيد الذي لم تعجبه الفكرة هو «هونتمور ينسى»
ويدا وكان لسان حاله يقول لنا :

«ان كل شيء على مايرام بالنسبة لكم أما أنا ،
فلا يعجبني الأمر برمته ، فأنا لايهمني تغيير المنظر
ولا الهواء العليل كما أتى لا ادخن ، واذا قدر لي أن
أرى فأرا فانكم لن تسمحوا لي بمطاردته ، وإن غلبني
النوم مرة فانكم قد تلقون بي في النهر بسبب حركتكم
في القارب ، ولهذا ياسادة .. ان سألتهموني فسأجيب
بأن الأمر كله .. حماقة .. !!

لكننا على أية حال كنا ثلاثة مقابل واحد وبهذا
تمت الموافقة على فكرة جورج ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الثانى

التخطيط لقضاء العطلة (٢)

فحصنا الخرائط وبدأنا تناقش برامجنا لقضاء
لعطلة .. فى البداية حددنا موعد الانطلاق . وقررنا
أن يكون صباح السبت القادم ، كما قررنا أن تبدأ الرحلة
من كنستون التى سنذهب إليها أنا وهارىس لنأخذ منها
لقارب الى " تشيرتسى " حيث يتضم الينا جورج الذى
من يتمكن من مغادرة المدينة قبل العصر ، فجورج يذهب
لنوم - أقصد العمل ! - فى البنك من الساعة العاشرة
صباحا وحتى الرابعة من بعد الظهر ، فيما عدا يوم
السبت الذى يوقظونه فيه فى الثانية ويلقون به الى
لخارج .

وبعد تحديد زمان ومكان ابتداء الرحلة ظهر لنا
سؤال هام ..

ترى هل نعسكر فى الخلاء أم نبني كل ليلة من ليالى
الرحلة فى الغنادق ؟ . وقد حبذنا انا وجورج - فكرة
أن نعسكر فى الخلاء حيث الحرية والطبيعة البرية .

ففى الخلاء وعند الغروب ، تنسحب خيوط الشمس
الذهبية ببطء الى قلب غلالات السحب الحزينة بينما
تتوقف الطيور الصداحة عن الغناء وكأنها جمع من
الأطفال كسيرى القلوب ..

ومن قلب الغابات الداكنة على ضفتى النهر ،
يخرج جيش الليل وتزحف الأشباح الرمادية فى صمت
وتسير بأقدام خفية فوق حشائش النهر الراقصة . بينما
يرتدى الليل تاجه السحري وينشر أجنحته السوداء
فوق العالم المظلم . ومن قصره السحري الذى تضيوه
النجوم المتألئة يحكم العالم .

عندئذ ، ننساب بقاربنا الصغير الى بقعة هادئة
وتنصب خيمتنا ونجهز عشاءنا .. وبعد أن نتناول

العشاء . نجلس فى استرخاء ويشعل كل منا غليونه
ونتجاذب أطراف الحديث فى سعادة . بينما النهر فى
لحظات صمتنا .. يلعب حول قاربنا الصغير ويهمس
بحكايات غريبة وقديمة أو يغنى بصوت حالم أغنيته
الأزلية الأبدية .

هكذا وبينما ينحنى القمر ويطبع قبلة أخوية على
خد النهر ويحضنه بأذرعہ القضيية ، نراقب تحن النهر
وهو يسير فى رحلته الأبدية يغنى أغنيته الخالدة حتى
يمثل بين يدي ملكة البحر ..

وتبقى على هذه الحال حتى تتلاشى أصواتنا
وتنتطفئ الغلايين ويملؤنا - نحن الشباب الثلاثة
العاديين جدا - شعور غريب بأفكار نصف حزينة ..
نصف جميلة .. ثم لا نعود الى الاهتمام بالكلام ..
ثم نضحك قليلا .

وينفض كل منا رماذ غليونه ويقول لزميليه :

- تصبعان على خير !!

بعدها تروح فى نوم جميل تطل علينا نجوم السماء

اللامعة ، ونحلم .. نحلم بأن العالم قد عاد طفلاً ..
يكراً من جديد !

هكذا تخيلنا معسكرنا في الخلاء أنا وجورج
ولكن هاريس سألنا :

— وماذا سنفعل لو أن السماء أمطرت ؟

أوه .. أنه لمن المستحيل أن تثير قلب هاريس
وعقله . أنه لا يحمل في نفسه أدنى قدر من الشاعرية .
ولو حدث ورأيت عينيّه ذات مرة تفيضان بالدمع ،
فاعلم أنه قد أكل لقوه بصلة نيئة .

ولكن ، وعلى أية حال كانت ملاحظته في محلها —
من وجهة النظر العملية على الأقل — فمعسكر في الخلاء
تحت المطر لن يكون بالشيء المبهج أو الذي يبعث على
الارتياح .

فتخيلوا ، الوقت مساء وانتم مبتلون والماء يرتفع
داخل القارب لمسافة بوصتين وكل شيء حولكم غارق
في الماء . وبعد جهد تعثرون على مكان ما على ضفة
النهر ليس موحلاً بتقص درجة غيره من الأماكن .

فترسون عنده ، وتخرجون خيمتكم ويبدأ اثنان منكم
فى نصبها .

ستجدون الخيمة مبتلة وثقيلة فتشددكما الى اسفل
وتلتف حول راسيكما وتصبكم جميعا بالحنق والضيق ،
بينما المطر ينهر بلا انقطاع . . ان عملية نصب الخيمة
عملية صعبة حتى فى الجو الجاف ولكنها تتحول الى
 مهمة مستحيلة على أى انسان فى مثل هذا الطقس . .
وبعد قليل تكتشف ان زميلك بدلا من ان يساعدك ، يلعب
معك لعبة الحصى ، فلا تكاد تثبت الخيمة من ناحيتك
حتى يجذب هو بشدة من ناحيته فينزعها فتصـرـخ فى
غضب قائلا :

— هيه ماذا تفعل ؟ !

فيرد عليك هو :

— ماذا تفعل انت ؟ ارخ الطرف الذى ناحيتك . .

أوه لا تستطيع هذا ؟ !

فتصيح فيه :

— لاتجذب . . انك تجذبها خطأ أيها الأحمق !

فيرد عليك :

– لا .. أنا لا أجذبها خطأ

ويشد بقوة أكبر وهو يصيح :

– أرخ أنت الطرف الذي عندك !

فتزمجر قائلاً :

– انتنى أقول لك أنك تجذبها خطأ !

ثم تجذب أنت جذبة قوية تنزع بها كل جوانب الخيمة
من ناحيته فتسمعه يزمرجر ويقول لنفسه :

– أوه . يا لهذا الحمار !

ويجذب هو جذبة قوية تنزعها من ناحيتك تماما .
وفي الحال تبدأ في الدوران لتذهب إليه وتخبره برأيك فيه
وفي عمله في نفس الوقت الذي بدأ هو فيه بالدوران
في نفس الاتجاه ليشرح لك وجهة نظره ومن ثم يتبع
كل منكما الآخر وتأخذان في الدوران في دائرة مغلقة ،
وبينما كل منكما يزداد غضبا ومسخطا تسقط الخيمة في
الوحد .

وأخيرا وبطريقة أو بأخرى تنصبون الخيمة وتبدأون
فى انزال أشياءكم الى الشاطئ ، وبالطبع تفشل كل
محاولة لتكم فى الأبقاء على خشب التدفئة صالِحاً للاشتعال
.. ومن ثم لا يكون أمامكم الا اشعال الموقد والجلوس
حوله طلبا للتدفء !

أما العشاء . فستجدونه يتألف أساسا من .. ماء
المطر ! .. نعم ماء المطر ! فالخبز مشبع بالماء وشرائح
اللحم غنية به والمربى والزبد والملح والقهوة وكل شئ ..
كل شئ ممزوج بماء المطر وقد تحول الى نوع
ما من (الشورية) .. !

وبعد العشاء لن تستطيعوا التدخين ، فالطباق مندى
ولا يصلح للاشتعال . وأخيرا وعندما تذهبون للنوم ،
ستحلم أن فيلا ضخما قد جلس فجأة فوق صدرك ، أو
أن بركانا رهيبا مثل « فيزوف » قد انفجر وألقى بك
الى قاع البحر بينما الفيل لا يزال جاثما على صدرك
بكل هدوء ودعة . فتصحو مفزوعا يملؤك شعور بأن
شيئا مروعا قد حدث ، بل تلح عليك فكرة أن يوم القيامة
قد حل موعده وقامت القيامة فعلا !

ولكن سرعان ما تعرف أن هذا لم يحدث وأن ما حدث هو أنه قد مر عليك وأنت نائم جماعات من اللصوص والسفاحين أو أية مصيبة أخرى . المهم وهذا كل ما ستعرفه هو أن الأفا من الناس قد مروا عليك وركلوك بأقدامهم وأنتك لاتستطيع التنفس من شدة الألم . .

هناك شخص آخر يعاني من مشكلة هو الآخر .
وانينه الضعيف يأتيك من تحت فراشك . وعاقدا العزم -
بعد كل هذه الأحداث - على الدفاع عن حياتك فأنك ستأخذ في الحركة المتشنجة دافعا برجليك وقدميك في كل اتجاه تصرخ بكل ما أوتيت من قوة . أخيرا يتحرك شيء ما مفرجا عنك فتشعر برأسك وقد خرجت ثانية للهواء المطلق وقريبا منك سترى قاتلك وقد قبع نصف عار في انتظار أن يجهز عليك وتشرع في الاستعداد لمعركة حياة أو موت . وفجأة . . تكتشف أنه لم يكن سوى جيم !

ويصبح هو مندهشا وقد تعرف عليك في نفس اللحظة :

- أوه ، أوه أنت ؟

فتجيبه وأنت تفرك عينيك !

- أجل ؟ ماذا حدث ؟!

- يبدو أن الخيمة قد انهارت فوقنا - على ما أعتقد

ولكن أين بيل ؟

وترفعان عقيرتيكما سويا بالنداء على بيل فتشعر
بالأرض تهتز تحتك والصوت الضعيف الذي كنت قد
سمعتة من قبل يصرخ من تحت الاغطية :

- انهض من فوق رأسى . ألا تريد أن تتحرك ؟

ثم يضطرب جسد « بيل » فى تشنج عنيف ويخرج
من تحتك شخص منهار وقد غطاء الطين ويصيح معتقدا
أن كل ما حدث كان مديرا ..

فى الصباح القالى ، ستصبحون غير قادرين على
الكلام نتيجة لنزلة البرد التى أصبتم بها فى الليلة
السابقة . كما أنكم ستشعرون جميعا بالضيق من
بعضكم البعض وسيتكلم كل منكم مع زميله فى غضب
واضح ولكن بهمس مؤلم - نتيجة مرض الحنجرة -
طوال وقت تناولكم الافطار .

من أجل كل هذا فقد قررنا أن ننام في الخلاء أن
كان طقس الأمسية جميلاً وأن نذهب لنبيت في نزل أن
كان الطقس عكس ذلك أو أن كنا نرغب في بعض
التغيير .

وقد رجب مونتمورينسي بهذا الرأي الذي انتهينا
إليه بشكل واضح . أنه لا يجب أن يبقى هادئاً أو وحيداً
أنه يفضل أن تكون الحياة صاخبة . أنك أن نظرت إلى
وجه مونتمورينسي فسيملوك احساس بأنه روح
سماوية تجسدت في جسد كلب صغير ، لدرجة أن وجهه
البريء عادة ما كان يستثير الدموع من عيون السيدات
العجائز والرجال المتدينين .

ولكن برغم كل هذا ، فانا لم نستغرق وقتاً طويلاً
لاكتشف فداحة الخطأ الذي كانوا يقومون فيه في فكرتهم عن
هذا الكلب الصغير . فذات مرة كان على أن يدفع ثمن
دسنة من الدجاج قتلها هذا الكلب البريء النظرات
وكثيراً ما كان على أن أجذبه بقوة من رقبتة ورجله
لأستخلصه من معاركه العنيفة من كلاب الشارع . بل
أن عندي قطعة مينة أحضرتها إلى إحدى العائلات وهي

تصب على اللعنات وتصفني بأنى قاتل وفى مرة أخرى
مثلت أمام المحكمة فى دعوى رفعها على جارى لعدم
استطاعتي السيطرة على كلبى الشرس الذى حبس
جارى فى (عشة الفراخ) على مدى أكثر من ساعتين
فى احدى الأمسيات الباردة . وبعد كل هذا بدأت أعيد
النظر فى الفكرة التى تقول أن مونتمورينسى قد منح
روحا سماوية من الجنة !

وبعد الاتفاق على طريقة وأماكن النوم أثناء الرحلة
لم يعد أمامنا سوى أن نناقش سويا قائمة الأشياء التى
يجب علينا أن نحملها معنا فى رحلتنا . . . ولكننا ما أن
بدأنا نتجادل فى هذا الأمر حتى بادرننا هاريس بقوله
أنتا قد تكلمنا بما فيه الكفاية فى ليلة واحدة وأن مشكلتنا
الجديدة يمكنها أن تنتظر حتى الليلة القادمة . .

الفصل الثالث

دراسة احتياجات الرحلة

والتقينا في المساء التالي لنتابع حوارنا حول برنامج رحلتنا ، في البداية قال هاريس :

- والآن يجب أن نتفق أولا على ما سنأخذه معنا من مؤن ومستلزمات ومعدات . وعلى هذا أقترح أن نحضر ورقة لندون بها الأشياء يا (جى) ، ولتلق أنت نظرة على ما بالخزانة من مواد البقالة يا جورج . وليحضر لى أحدكم قلمًا وسأضع أنا قائمة بما سنأخذه معنا .

هكذا هو دائما . ان هاريس على استعداد دائم

لتحمل تبعة كل شيء ، ثم . . القائه على كامل
الآخرين . .

وهو في هذا يذكرني بمعنى « بودجر » ، فعندما
يتطوع عمى بودجر للقيام بعمل ما يكون المرادف هو
الكثير من الاضطراب واللبخطة . .

في يوم من الأيام جاءتنا لوحة من عند صانع
الاطارات بعد أن صنع لها اطارا جميلا ووضعناها في
حجرة الطعام على الأرض في انتظار من يعلقها على
الحائط . وعندما تساءلت العمه ماريا عما يجب أن
نفعل لنعلقها على الحائط أسرع العم بودجرقائلا :

– أوه ، أتركى لى هذا الأمر ، لاتشغلى بالك على
الاطلاق . سأقوم أنا بهذا العمل . .

ثم خلع معطفه وشرع فى العمل . فأرسل الفتاة
للخارج لأحضار بعض المسامير ، ثم أرسل أحد الأولاد
خلفها ليخبرها عن حجم المسامير التى يجب احضارها
وهكذا وتدرجيا القى عمى بتعليماته وأوامره لكل من
بالبيت ليقوم كل منهم بعمل شئ ما . . وبعد هنيهة
صاح :

- والآن ناولنى أنت « الشاكوش » .. حسنا .
وانت ناولنى (المسطرة) ياتوم ، أيضا سأحتاج للكرسى
المطبخ .. اما أنت يا جيم فاسرع الى السيد « جوجلز »
واطلب منه ان يعيرنا سلمه الخشبى . آوه ، لا تبتعدى
عنى يا عاريا لأننى سأحتاج لمن يمسك لى المصباح .

واستمر عمى فى صياحه قائلا :

- عندما تعود الغتاة من الخارج بالمسامير ، عليها
ان تخرج ثانية لاحضار سلك يصلح لتعليق اللوحة .
اما توم .. أين توم ؟ .. توم ! تعال هنا . سأحتاجك
لترفع معى اللوحة .

وهنا ترك عمى اللوحة من يده فسقطت وخرجت
الصورة عن الاطار وحاول عمى انقاذ الزجاج فجرحت
يده . فأخذ يثب فى الغرفة فى كل اتجاه باحثا عن
منديله . وبالطبع لم يجد المنديل لأنه كان فى جيب
معطفه الذى خلعه منذ دقائق .

وعكذا كان على كل من بالبيت أن يتركوا ما بأيديهم

ليتفرغوا للبحث عن معطف عمى الذى اختفى وفى
جيبه المنديل !

هذا بينما كان عمى يثب فى كل مكان صائحا مويخا
كل من بالبيت قائلا يصبر نافد :

الا يوجد انسان واحد فى هذا البيت يعرف أين
وضعت معطى ؟ أه ياربى اننى لم أر فى حياتى قوما
كهؤلاء ! ستة أفراد ولا يستطيعون العثور على مجرد
معطف ! .. أوه لقد خلعتة من خمس دقائق فقط .

ثم نهض واقفا ليجد أنه كان جالسا على معطفه
قصاح .:

- أوه ! يمكنكم التوقف عن البحث ، لقد وجدته -
أنا بنفسى - أوه .. لقد كنت كمن يطلب من القط
البحث عن أشياءه عندما طلبت منكم العثور على
معطى !

وبعد أن قضى نصف ساعة فى ربط وتضميد أصبعه
المجروح ، وبعد أن جىء بزجاج جديد للأطار وتم

احضار الأدوات والسلم والكرسي والشمعة ، شرع
عمى فى محاولة اخرى بينما وقفت العائلة بكامل هيئتها
على شكل نصف دائرة حوله فى حالة الاستعداد القصوى
لتقديم العون عندما يطلب منها .

فكان على اثنين منا الإمساك بالكرسى وعلى
الثالث أن يمسك بعمى فوق الكرسى ويساعده ، أما
الرابع فعليه أن يناوله المسمار وعلى الخامس أن يناوله
(الشاكوش) .

وهم عمى بالعمل ، فأمسك بالمسما . ولكنه سقط
من بين أصابعه فقال عمى فى ضيق :

— أود هكذا ! ماكان ينقصنا سوى ضياع المسمار !

وبالطبع كان على الجميع أن ينحنوا على الأرض
بعثا عن المسمار بينما وقف العم « بودجر » فوق
الكرسى متسائلا ان كان عليه ان يقضى كل الليل واقفا
هكذا فى انتظار المسمار !

وأخيرا تم العثور على المسمار وفى نفس اللحظة
اضاع عمى (الشاكوش) فأخذ يصيح :

– أين المطرقة ؟ ماذا صنعت بالمطرقة ؟ بالسماء
سنة أفراد تقفون هكذا بغباء ولا تعرفون أين وضعت
المطرقة ؟ !

أخيرا وجدنا مطرقة عمى ، ولكنه كان قد افترق
مكان العلامة التي وضعها على الحائط حيث يجب أن
يثبت السمار ، ومرة أخرى كان على كل منا أن يبحث
عن مكان العلامة فكنا نصعد واحدا واحدا بالدور فوق
الكرسى ونحلق في الحائط بحثا عن العلامة . وبالطبع
كان كل منا يعثر على مكان مختلف للعلامة وكان عمى
يصيح في وجه كل منا متهما اياه بالغباء وأمرنا اياه
بالنزول فورا من فوق الكرسي .

ثم أخذ عمى المسطرة وأعاد القياس مرة أخرى
ووجد أن بقعة التثبيت يجب أن تكون على بعد يساوي
نصف المسافة التي تساوي واحدا وثلاثين بوصة وثلاثة
أثمان البوصة من زاوية الحائط ، وحاول عمى حساب
هذه المسافة في رأسه وكذلك فعلنا جميعا . ثم انتابتنا
جميعا موجة من الضحك السافر – لم نظهرها بالطبع

وفي خضم هذه (اللخطة) تسينا الرقم الأصلي ، وكان
على العم بوجر أن يعيد القياس من جديد

هذه المرة استعمل عمى أنشودة صغيرة ، وبينما
هو ينحنى من فوق المقعد بزاوية مقدارها خمس وأربعين
درجة محاولا الوصول لنقطة تبعد ثلاث بوصات عن
أقصى ما يستطيع أن يصل إليه سقطت الانشودة من يده
ووقع عمى فسقط فوق البيانو محدثا موسيقى حادة
ودويا هائلا !

أخيرا استطاع العم بوجر تحديد بقعة التثبيت .
ووضع رأس المسمار عليها بيده اليسرى . وأخذ المطرقة
بيده اليمنى . وعند أول طرقة طرقت المطرقة على إبهامه
فقفز بها وهو يصرخ من الألم . فسقطت على أصابع
قدم أحد الواقفين . .

وبهدوء شديد أبدت العمة ماريا ملاحظة هامة
لعمى بوجر وهي أن عليه أن يخبرها في المرة القادمة
أن هو أراد القيام بعمل ما في البيت حتى تتركه له
أسبوعا تقضيه عند أمها .

على أية حال ، حاول عمى محاولة ثانية ، وفى
الطريقة الثانية اخترق المسمار دهان الحائط واندفعت
الطريقة خلفه بينما ألقى بالعم بودجر فى اتجاه الحائط
باندفاع كان كافيا لسحق أنفه ..

وكان علينا للمرة الألف أن نحضر المسطرة
والأنشودة لكى يصنع العم بودجر ثقباً جديداً ، وعند
منتصف الليل تقريبا تم تعليق اللوحة ولكنها - للأسف -
لم توضع فى مكانها الصحيح ولا كانت مثبتة جيداً ،
بينما بدا الحائط حولها - لمسافة ياردات - وكأنه كشط
بشوكة الحديدية .

وارتسمت نظرات الحزن على وجه الجميع عدا العمل
بودجر الذى بدا قخوراً بما صنع وقال فى اختيال وتباه .

- ها هى اللوحة فى مكانها . ان بعض الناس
يستأجرون عمالاً ليقوموا بأعمال صغيرة كهذه .

ان صديقنا هاريس سيصبح من ذلك النوع من
الرجال مثل عمى ، وقد أخبرته ذات مرة برأى هذا .
ولهذا قلت أننى لا أستطيع أن أتركه يتحمل عبء العمل

كله وحده . لهذا فسيقوم أنا بمهمة الاشراف على العمل
بالكامل ويكفى أن يقوم هو بإحضار الورقة والقلم
والقاء نظرة على ما بالخزانة من بقالة بينما يقوم جورج
بتدوين ما سنعليه عليه . .

وبدأنا في تدوين القائمة . ولكن كان علينا أن نمزق
القائمة الأولى بعد أن أتممناها . ثم القيناها في سلة
المهملات . لأننا اكتشفنا أن نهر التيمس لا يتسع لمركب
بالحجم الذي يسمح بحمل كل ماتضمنته القائمة وكنا
نعتبره من الأساسيات .

وبعد أن مزقنا القائمة أخذنا نتبادل النظرات حتى
قال جورج :

– أوتدرون ؟ . . لقد كنا نسير في الاتجاه الخاطئ
إننا لا يجب أن نفكر فيما نستطيع أن نأخذه معنا بل فيما
لا يمكننا الاستغناء عنه .

إن جورج يصبح في أحيان كثيرة رزيناً ومعقولاً .
كانت ملاحظته مملوءة بالحكمة . ليس فقط فيما يخص
هذه الحالة ، بل إنها تعد ظلال حكمتها على كل ما يجب

أن نفعله طوال ابحارنا في نهر الحياة . . فكثير من الناس عندما يسافرون بالمراكب يحملون معهم من الأمتعة ما يمكن أن يتسبب في اغراق المركب . بسبب أمتعة غير مهمة ولا داعي لحملها إطلاقا . . دح قارب حياتك يسير خفيفا محملا فقط بما تحتاجه بالفعل . مثل بيت متواضع به بعض الأمتعة البسيطة وصديق أو صديقان يكونان صديقين بمعنى الكلمة . ثم انسان تحبه ويحبك . وقطة أو كلب صغير . . غليون أو اثنتان اذا كنت من المدخنين - ومايكفيك لتأكل وتشرب . . وبهذا ستجد أن قاربك أصبح سهل القيادة وستجد وقتا للعمل ووقتا لتنهل من شمس الحياة الدافئة .

تركنا القائمة ليضعها جورج الذي بدأ يقوله :

- لن نأخذ خيمة فالقارب الذي سناخذه له غطاء من القماش وهو أبسط من الخيمة وأكثر راحة ورفاهية .

وقد بدت فكرة معقولة فوافقنا عليها . وقال جورج في هذه الحالة فسنأخذ غطاء لكل منا . ومصباحا وبعض الصابون ، فرشاة ومشط واحدنا لنا ثلاثتنا

وفرشاة أسنان لكل منا . وبعض أدوات الحلاقة
ومشقتين كبيرتين للحمام . . . كنا نتكلم وكأننا سنصبح
فى النهر صباح كل يوم . فقد كان جورج يقول أنه من
المتع حقاً أن نستيقظ مبكرين فى الصباح ونأخذ
غطسا فى ماء النهر الرائق المنعش . . وقال هاريس أنه
لا يوجد أجمل من السباحة قبل الإفطار حتى تشعر بالجوع
وتقبل على طعام الإفطار بنهم . . وقد علق جورج على
هذا بقوله أنه إذا كانت السباحة فى النهر ستجعل
هاريس يأكل أكثر مما يأكل الآن ، فإنه سيعترض على
نزوله الماء بكل قوته . وفى النهاية اتفقنا على أن نأخذ
معنا ثلاث مناشف واحدة لكل منا حتى لا يقف أحدهنا فى
انتظار الآخر !

أما بالنسبة للملابس ، فقد قال جورج أن ستريتين
وسروالين سيكونان كافيين ، حيث أنه يمكننا أن نغسل
ملابسنا فى ماء النهر إن هى اتسخت . . ولم يكن
خيالى أو خيال جورج قويا لدرجة تستوعب كلام جورج
فكيف يتسنى لثلاثة رجال محترمين لا يعرفون شيئاً عن
الغسيل أن يغسلوا ملابسهم . . وأين ؟ فى مياه نهر
القيس ! . . وبقطعة صغيرة من الصابون ! . . وكان

سحر اللام
com/vb3

قدرنا أن نعلم بعد أسابيع قليلة وبعد أن فُتات
الأوان . أن جورج نفسه كان يعلم القليل عن هذا
الموضوع . إذا تسنى لك أن ترى هذه الملابس بعد هذا .
ولكن على أية حال فإن هذا الكلام يسبق الأحداث .

تصحبنا جورج أن نأخذ معنا الكثير من الملابس
الداخلية والجوارب ، وأيضا الكثير من المناديل حيث
أنها ستكون مفيدة في تغليف الأشياء وزوجا من الأحذية
الجلدية ذات الرقبة بالإضافة لأحذية القارب حيث أننا
قد نحتاجها إذا شعرنا بضيق أو عسل من أحذية
القارب !

الفصل الرابع

مشاكل الطعام وتحريم الأمتعة

وبدأنا نناقش مسألة الطعام • فقال جورج :

ـ نبدأ باحتياجات وجبة الاقطار (هكذا جورج دائما ، على ومنظم) • سنحتاج لقلاة و ...

لكن هاريس قاطعه قائلاً ان الطعام المقلى يسبب اضطرابات معوية • ولكننا نهرناه وطلبنا منه الا يكون غيبا • وتابع جورج كلامه قائلاً بتيرة جادة ذات مغزى :

ـ لن نأخذ معنا كيروسين •

وفي الحال وافقنا أنا وهاريس على هذه الملاحظة

فكل منا له ذكريات اليمة مع الكيروسين . فقد أخذنا معنا ذات مرة - لن نكررها أبدا - لقضاء عطلة كانت من أعجب وأسوأ العطلات التي قضيناها . كنا وكاثنا نحيا داخل مستودع للوقود لمدة أسبوع . فقد تخلل الكيروسين كل شيء حولنا ، وماكم الحكاية بالتفصيل -

بدأنا رحلتنا بعد أن وضعنا أوعية الكيروسين في مقدمة القارب ، ومنها انساب الى المؤخرة ناشرارائحته الكريهة في كل أنحاء ومحتويات القارب حتى افسد كل شيء حولنا . . . الطبيعة . . . الطقس . . . الهواء كل شيء ، كانت تهب علينا - أحيانا - رياح بترولية غربية ، وأحيانا أخرى بترولية شرقية ، ومرة بترولية شمالية وربما بترولية جنوبية . من أين أتت الرياح ، من ثلوج القطب الشمالى أم من صحراء افريقيا كانت تاتينا معبأة برائحة الكيروسين !

حاولنا التخلص من هذا العذاب فتركنا القارب عند مدينة « مارلو » وتمشيينا خلال شوارع المدينة لنفلت من هذه الرائحة . ولكنها تبعتنا فامتلات المدينة بأكملها

برائحة البترول . . . وعمرنا في سيرنا بفناء الكنيسة
حيث توجد المقابر ، فخير لنا أن الموتى قد دفنوا في
أبار البترول .

تمشينا في شارع المدينة الرئيسي فوجدنا هواء
مشبعاً برائحة الكيروسين ، وأخذنا نتعجب من سكان
تلك المدينة ، كيف يطبقون العيش في مثل هذا الجو ؟
وسرنا أميالا في اتجاه برمنجهام ، ولكن جهدنا ضاع
سدى ، فحتى الريف وجدناه غارقا في البترول !

ولكل ماتقدم كان قرارنا الحكيم هو أن يحتل الموقد
الكحولي المكانة الأولى . والا مكان معنا للموقد
الكيروسي .

واقترح جورج - كطعام للافطار - أن نأخذ بعض
البيض ، حيث أنه سهل الاعداد ، بالإضافة للحم البارز
والشاي والخبز والزبد والمربى ولكن . . . لا جبن . فالجبن
كالكيرومين يترك بصمته على كل شيء ، أنه يتخلل سلة
الطعام فيسبح على كل ما بها طعم الجبن ونكهته حتى أنك

لاستطيع ان تعرف اى نوع من الطعام تأكل من فرط
امتزاجه بطعم الجبن .

اننى اذكر صديقا لى اشترى قطعتين من الجبن من
« ليفربول » وكانتا ناضجتين نضوجا رائعا بحيث ان
رائحة الجبن يمكن ان تصطدم بانفك وانت على بعد مائتى
خطوة منها .

وكنست فى ليفربول فى ذلك الحين ، فطلب منى
صديقى ان احمل قطعتى الجبن هاتين معى عند عودتى
الى لندن ، حيث انه مضطر للبقاء فى ليفربول ليومين
آخرين وهو يعتقد ان الجبن لا يتحمل الحفظ خارج
ثلاجة اكثر من هذا . فاجبته لطلبه قائلا :

— اوه ، بكل سرور يا صديقى العزيز .

واخذت الجبن معى وركبت عربة أجرة (حنطور)
يجرها حصان عجوز مريض ووضعت الجبن فوق العربة
وبدأنا السير ببطء ولكن ما ان انعطفتا عند ناصية
الشارع حتى حملت الريح رائحة الجبن الى انف
الحصان العجوز ، فلدغته فى أنفه ، ومع صيحة رعب

اندفع الحصان العجوز يجرى بكل قوته ، حتى ان الأمر
استدعى الاستعانة باثنين من عمال السكة الحديدية -
بالإضافة للسائق - لكبح جماح الحصان المرعوب
وايقاقه عند باب المحطة !!

والحقيقة - هذا ما اعتقده - انه ماكان بإمكان أحد
أن يسيطر على جنون هذا الحصان المسكين لولا أن هدى
الله رجلا ذكيا فوضع منديلا على أنف الحصان وأشعل
أمامه بعض الورق !

أخذت تذكرتى وجعلت أسير متبخترا على رصيف
المحطة حاملا الجبن الفواح . بينما يفسح لى الناس
الطريق مبتعدين عنى فى احترام شديد !

كان القطار مزدهما واضطرت للركوب فى ديوان
به سبعة ركاب آخرين . وقد اعترض على دخولى رجل
عجوز ذو مزاج حاد - يبدو أنه من علية القوم - لكنى
دخلت رغما عنه ووضعت مامعى من جبن تحت المقعد
وجلست وعلى وجهى ابتسامة رضاء بريئة وأنا أقول :

- أوه ، كم كان يوما حارا !

ومرت بضع دقائق بعدها بدأ الرجل المجوز يتعلمل
فى مقعده ويقول :

— انها قريبة جدا من هنا !

ورد عليه الجالس بجواره :

— اوه وكريهة جدا !

ثم بدأ لكل منهما يلتقط أنفاسا حذره ضيقة ، وهى
الشهيق الثالث أصابهما سهم الرائحة فى صدريهما ،
فقاما دون أن ينبسا بحرف ، ثم غادرا المكان .. وبعدهما
قامت سيدة بدينة وللمت حقيبتها مع ثمانية طرود
وغادرت الديوان . بينما مكث بقية المسافرين فى أماكنهم
لبعض الوقت وفجأة ! .. اندفع ثلاثة منهم نحو الباب
فى وقت واحد فجرحوا بعضهم البعض فى تسابقهم فى
الخروج ..

ابتسمت للمسافر الوحيد الذى بقى فى العربة وقلت
له :

— يبدو أننا سنستمتع بالسفر وحدنا دون زحام !

فضحك وقال :

– ان بعض الناس يمكن مضايقتهم بسهولة .

ولكن هاليت رفيق سافرى – وبعد ان بدأ القطار يتحرك – ان ظهرت على وجهه علامات الحزن والضيق ولهذا – وكتلطف منى – دعوته لكاس فى غرفة الطعام ، فوافق على الفور ، وعندما كنا نسير فى طريقنا لغرفة الاستراحة توقف وطلب منى شلنين – ثمن كاس الويسكى – وذهب وتناولها بمفرده ثم دلف لعربة أخرى بسرعة .

لدى وصولى الى لندن حملت الجين الى منزل صديقى . وعندما دخلت استقبلتنى زوجته وهى تشمم الهواء حولها ثم سألتنى :

– ما هذا ؟ !

فقلت :

– انه جين اشتراه (توم) من ليفربول وطلب منى أن أحضره وأقدمه لك ياسيدتى !
وتأخر صديقى فى ليفربول أكثر مما كان يتوقع .

وعندما مرت ثلاثة ايام دون أن يحضر اتصلت بى زوجته
تليفونيا وقالت :

— ماذا قال توم بخصوص هذا الجبن ؟
فقلت :

— انه تصح بوضع الجبن فى مكان رطب وطلب
الا يسه أحد .

فردت فى عصبية :

— لا أحد يحب أن يقترب منه . ألم يشم رائحته ؟
فقلت يهدوء :

— اعتقد أنه فعل . وقد بدا مولعا بها تماما !

فسألتنى بصوت ودود :

— هل تعتقد أنه ربما يتضايق ان أنا أعطيت رجلا
ما جنيتها أو جنيهين ليحمل هذا الجبن ويدفنه بعيدا .

فقلت محذرا :

— انه لن يعرف البسمة فى حياته بعد هذا .

وبعد لحظة صمت ، وكان فكرة رائعة ارتطمت
برأسها وصاحت زوجة صديقى فى ابتهاج :

— هل تمنع فى الاحتفاظ بهذا الجبن عندك لأجل
توم . سوف أرسله لك على الفور .

ولكنى رجوتها قائلًا :

— سيدتى العزيزة ، اننى حقا أحب الجبن ولستوف
أظل أنظر لرحلتى معه من ليفربول الى لندن على أنها
كانت نهاية سعيدة لعطلة ممتعة . ولكن فى عالمنا هذا ،
يجب على المرء أن ينتظر بعين الاعتبار لأذواق الآخرين
والسيدة التى أسكن تحت سقف بيتها أرملة وهى لا تحب
أن يفرض عليها أحد شيئًا لا تريده أو كما تسميه هى
(ضد إرادتها) . ووجود الجبن الخاص بزواجك فى
بيتها سيندرج تحت هذا الاسم بالتأكيد . . . وأنا لا أحب
أن يقال عني أنى أكرهت أرملة وأطفالًا يتامى على تحمل
أمر (ضد إرادتهم) . .

فقالت :

— حسن إذن . ان كل مايمكننى عمله الآن هو ان

أخذ أطفالى وتذهب لنقيم فى فندق حتى يأتى توم ويأكل هذا الجبن أو يتخلص منه . فلأنا لا أتحمل البقاء مع هذا الشيء تحت سقف واحد أكثر من هذا .

وجاءت فاتورة الفندق بخمسة عشر جنيها . وهكذا وبعد أن جمع صديقى كل التكاليف . اكتشف أن ثمن الجبن صار يفوق الجنيه والثمانية شلنات التى دفعها ثمنا له بكثير . مما جعله يقول أنه وإن كان يعشق أكل الجبن القديم إلا أنه أصبح مكلفا للغاية . ولهذا قرر التخلص من قطعة الجبن .

وبدا بأن ألقاه فى النهر ، ولكن عمال القوارب اشتكوا من رائحته التى تصيبهم بالاعياء ، وصار عليه أن يستخرجه ثانية . وبعد محاولات مختلفة فشلت جميعها . هداه تفكيره الى أن يدقنه فى رمال الشاطئ فى إحدى المدن الساحلية الصغيرة . .

وقد اشتهرت هذه المدينة الآن بعد أن كثر حديد الناس عن مدى قوة هوائها وأصبحت المدينة الساحلية مزارا لمرضى الصدر لسنوات عدة بعد هذا . . .

وهكذا ، رغم ولعى الشديد بأكل الجبن وافقت على
رأى جورج بعدم أخذ أى جبن معنا فى رحلتنا القادمة .
وقبل أن نفترق هذا المساء ، كنا قد وضعنا قائمة بالأشياء
التي يجب أن نأخذها معنا . . وفى اليوم التالي - يوم
الجمعة - جمعنا كل شيء ووضعناه مع بعضه البعض
والتقينا فى المساء لنحزم الحقائب والأمتعة .

أحضرنا حقيبة كبيرة للملابس وسلتين كبيرتين
للطعام وأدوات الطهى . وأزحنا المنضدة من وسط
الغرفة والصقناها بالجدار بجوار النافذة . ثم وضعنا
كل الأشياء وفى كومة واحدة فى منتصف الغرفة على
الأرض وجلسنا حولها ننظر إليها .

وبعد لحظات من الصمت انبريت قائلاً :

- دعوا لى مهمة ترتيب هذه الأشياء .

الحقيقة أنى كنت غخوراً - الى حد ما - بطريقتى
فى ترتيب الحقائب وحزم الأمتعة فهذا شيء من تلك
الأشياء التي اعتقد أنى أعرفها أكثر من أى انسان آخر
وقد أوضحت هذه الحقيقة لكل من جورج وهاريس .

فوافقا على ترك المهمة بحماس بالغ . وأشعل جورج غليونته وألقى بنفسه فوق مقعد وثير ووضع هاريس قدميه فوق المنضدة وأشعل سيجارا وجلس يدخنه فى استرخاء شديد .

أوه ! لم يكن هذا - بالتأكيد - هو ما قصدت اليه بقولى (دعوا لى مهمة ترتيب الأشياء) لكنى كنت أقصد مهمة ادارة عملية الترتيب على أن يعمل - جورج وهاريس - بناء على توجيهاتى . . . أوه ان اخذهمما عبارتى هذا المأخذ أغاظنى بشدة . فلا شىء يثير غضبى قدر أن أرى الآخرين يجلسون هكذا بلا عمل بينما أقوم أنا بالعمل كله وحدى .

على أية حال لم يعد فى امكانى التراجع الآن . وبدأت العمل باجتهاد . وكم بدا لى شاقا وطويلا أكثر مما كنت أتصور بكثير . الا انى أخيرا انتهيت من ترتيب حقيبة الملابس وجلست فوقها لأحكم اغلاقها . وفى هذه اللحظة سألنى هاريس بهدوء وبرود :

- ألن تضع الأحذية ذات الرقبة الطويلة فى الحقيبة ؟ !

فَنظَرْتُ حَوْلِي وَوَجَدْتُ أَنِّي قَدْ نَسِيتُ الْأَحْذِيَّةَ بِالْفِعْلِ !

يَا لَه !! أَنْ هَارِيسَ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَكْلِفَ نَفْسَهُ عَنَاءَ
تَنْبِيهِِي وَلَوْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ قَبْلَ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ تَرْتِيبِ كُلِّ
شَيْءٍ وَأَسْتَعِدَّ لِإِغْلَاقِ الْحَقِيبَةِ وَحَزْمِهَا .

وَبَيْنَمَا أَنَا أَفْتَحُ الْحَقِيبَةَ مِنْ جَدِيدٍ لِأَضْعَ فِيهَا الْأَحْذِيَّةَ
رَاحَ جُورْجُ يَقْهَقُهُ عَالِيَا فِي وَاحِدَةٍ مِنْ ضَحِكَاتِهِ الْهَيْسْتِيرِيَّةِ
الْتَّافِهِةِ . أَهْ كَمْ يَثِيرُنِي تَصَوُّرُ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ
وَيَغِيْظُنِي .

وَمَا كَدْتُ أَبْدَأُ فِي إِغْلَاقِ الْحَقِيبَةِ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى مَرَّ
بِذَهْنِي خَاطِرُ مَا سَاوَى . . أَتَرَانِي قَدْ وَضَعْتُ فَرَشَاةَ
أَسْنَانِي فِي الْحَقِيبَةِ أَمْ نَسِيتُهَا كَعَادَتِي .

مَرَّةً أُخْرَى كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَخْرَجَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَقِيبَةِ
بَحْثًا عَنِ الْفَرَشَاةِ . وَفِي بَحْثِي وَجَدْتُ فَرَشَاةَ جُورْجِ
وَفَرَشَاةَ هَارِيسَ ، لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ فَرَشَاةَ أَسْنَانِي أَنَا .
وَأَخَذْتُ أَضْعُ الْأَشْيَاءَ فِي الْحَقِيبَةِ قِطْعَةً قِطْعَةً عَلَنِي
أَجْدُمَا ، وَكُنْتُ أَرْفَعُ كُلَّ قِطْعَةٍ إِلَى أَعْلَى وَأَهْزِمُهَا غَرْبَمَا
تَكُونُ فَرَشَاةَ أَسْنَانِي عَالِقَةً بِهَا . وَلَكِنْ ضَاعَ كُلُّ هَذَا

سدى . . الى ان وجدتھا أخيرا مختبئة داخل أحد
الأحذية ذات الرقبة الطويلة فوضعتها فى مكانها وبدأت
أرتب كل شيء من أول وجديد . . !

وجلست فوق الحقيبة لأشد وثاقها وأحكم إغلاقها ،
ولكنى ما أن بدأت فى ذلك حتى تذكرت انى قد وضعت
علبة الطبايق الخاصة بى داخل الحقيبة . وهكذا كان
على أن أفتحها لأعيد الكرة مرة أخرى !!

وبعد أن انتهيت وببرودة القاتل عاد جورج يسألنى
عما اذا كنت قد وضعت الصابون فى الحقيبة أم نسيته .
فصرخت فيه بصبر نافذ وقلت له انتى لا يعتينى ان كان
الصابون داخل الحقيبة أم خارجها .

أخيرا . وبعد أن تعدت الساعة العاشرة بخمس
دقائق أتممت تحريم الحقيبة وإغلاقها . وبقي أن أرتب
الأشياء الأخرى فى السلتين . ولكن هاريس قال فى
تعال وسخرية أنه يرى من الأفضل أن يقوم هو وجورج
ببقية العمل . فوافقت فى الحال وجلست ألتقط أنفاسى
بينما بدأ صديقائى فى العمل .

شرع الصديقان فى العمل بروح مرحة وبعزيمة معقودة على أن يريانى كيف يكون العمل فى مثل هذه الأشياء . أما أنا فلم أبد أية ملاحظة ، فقط جلست أنتظر وأنظر الى أكوام الأطباق والاقداح والقلاية والموقد والفتائر والكعك والفاكهة والزبد والمربى ... الى آخره ، وملأتى شعور بأن الأمر سيكون مضحكا للغاية .

وقد كان ، فقد بدأ بكسر قدح من الزجاج ، ثم وضع هاريس علبه مربى كبيرة فوق بعض الفاكهة الناضجة وسحقها فكان عليهما أن يخرجيا بقايا الفاكهة من السلة بواسطة ملعقة صغيرة . ثم جاء دور جورج الذى دهس الزبد بقدمه . وبالطبع لم أعلق أنا على كل هذا ولكنى قمت وجلست على حافة المنضدة لأتفرج مستمتعا عليهما . وقد أغاظتهما تصرفى هذا بما يفوق ماكان يمكن أن يفعله أى تعليق .

ثارت أعصابهما واشتعل غيظهما فازداد ارتباكهما وطفقا يمشيان على الأشياء ، ويضعان أشياء أخرى خلف ظهريهما ، ثم يعودان يبحثان عنها فلا يجدانها .

ووضعا القطائر في قاع السلة والأشياء الثقيلة على
السطح وبذلك هرسا القطائر . ونثرا الملح فوق كل
شيء . بل أنى لم أر رجلين فعلا برطل من الزبد أكثر
مما فعل جورج وهاريس .

فبعد أن انتزعه جورج من تعل حذائه حاول أن
يضعاه في علبة قلم يستطيعا أن يضعاه كله بداخلها ،
وما أدخلاه لم يستطيعا إخراجه . وأخيرا كحتماه
ووضعهما فوق أحد المقاعد . وفي غفلة منه جلس هاريس
على هذا المقعد فالتصق الزبد بمقعده وبعد برهة كان
هو وجورج يقلبان الغرفة بحثا عن الزبد .

وقال جورج وهو يحملق في المقعد الخالي :

— أقسم أنى وضعتهم فوق هذا المقعد .

ورد عليه هاريس :

— أنى رأيته بعينى رأسى منذ أقل من دقيقة !

ثم أخذوا يدوران في الغرفة بحثا عن برطل الزبد .

ثم تقابلا مرة أخرى في منتصف الغرفة وحملق كل منهما في الآخر .

وقال جورج :

— ان هذا أعجب شيء سمعت به في حياتي !

وايده هاريس بقوله :

— انه لشيء غامض جدا !

واستدار جورج مصادفة خلف هاريس فوجد الزيد ملتصقا بمقعده قصاح مندهشا في غضب :

— ياربى .. هاهو الزيد موجود هنا طول الوقت !

وصاح هاريس وهو يستدير للخلف بسرعة :

— أين ؟

وأمسك به جورج ونهره بقوله :

— قف حيث أنت .. الا يمكنك ان تقف ساكنا أبدا ؟!

ثم انتزع قطعة الزيد من مقعده ووضعها في علبة الشاي .

وغنى عن الذكر أن مونتمورينسى كان مشاركاً في تلك الفوضى منذ البداية . فإن أقصى ما يطمح إليه مونتمورينسى هو أن يكون دائماً حيث لا يجب أن يكون وأن يعترض طريقك حيثما توجهت ، وتبلغ سعادته قمته حينما يثير أعصاب الناس فيقذفونه في وجهه بكل ما تناله أيديهم . انه هكذا يشعر بالرضا عن يومه .

فهو قد جلس ممداً فوق الأشياء التي أردنا جمعها معا . وقد بدا عليه أنه يعتقد أنه حيثما مد جورج أو هاريس يداً لتناول أى شيء فإنما هما يقصدان أنفسه الرطب . ثم وضع قدمه في المربي ولوث بها كل الملاءق وأصر على اعتبار التفاحات فئراناً ومن ثم قفز داخل السلة ثلاث مرات قبل أن يطرده هاريس بواسطة المقلّة .

وتم حزم الأمتعة كلها في الثانية عشرة وخمسين دقيقة . وجلس هاريس فوق أكبر السلتين وقال وهو يلهث أنه يأمل ألا يكون شيء قد تكسر ، فرد عليه جورج بأن قال انه اذا كان ثمة شيء قد انكسر فقد انكسر ،

وقد بدا كأنما أراحته هذه الفكرة .. ثم قال أنه أصبح الآن جاهزا للنوم .. وفي الحقيقة كنا جميعا في أمس الحاجة للنوم وقد قرر هاريس أن يبيت معنا الليلة فصعدنا الى حجرات النوم ..

وسألنا جورج :

— في أى وقت تحبون أن أوقظكم يارفاق ؟

قال هاريس :

— في السابعة .

ولكنى قلت بسرعة :

— لا .. بل السادسة .

لأنى كنت أريد أن أكتب بعض الرسائل . وأخيرا

اتفقنا على أن نجعلها السادسة والنصف

وقلنا أنا وهاريس فى صوت واحد :

— أيقظنا في السادسة والنصف يا جورج

ولكن جورج لم يحر جوابا والفيحاء قد سافر في
نوم عميق فوضعتنا اثناء الحمام مملوءا بالماء تحت
سريره وحيث يستطيع أن يسقط فيه عند استيقاظه ..
ثم ذهبنا لنتنام ! ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الخامس

وبدأنا الإجازة

كانت السيدة بوبيت هي التي أيقظتني في الصباح وهي تقول :

— هل تعلم أن الساعة قد قاربت التاسعة ياسيدي ؟

فانتفضت مفزوعا وأنا أصرخ :

— ماذا ؟ التاسعة !

فأعادت مسر بوبيت على سمعي قولها وهي لاتزال خلف الباب :

— التاسعة تماما ياسيدي . أعتقد أنك نمت كثيرا .

أيقظت هاريس وأخبرته أن الساعة قد صارت
التاسعة صباحا فقال وهو يغالير النعاس .

— التاسعة ؟ .. اعتقد أنك كنت تريد الاستيقاظ في
المسادة ..

— نعم كنت أود هذا . لم لم توقظني حتى الآن ؟

— كيف أوقظك بينما أنت تركتني نائما ؟ !

واستطرد هاريس قائلا بغضب :

— الآن لن نستطيع أن نكون في الماء قبل الثانية
عشرة .. !

ثم قال بسخرية غاضبة :

— اننى أعجب كيف حملت نفسك كل هذه المشقة
ونهضت من فراشك !

فأجبهته في حدة قائلا :

— من حسن حظك أنى فعلت ذلك .. فلو أنى لم

أستيقظ وأوقظك لظلمت راقدا هناك تغط في نومك طوال
الأسبوعين القادمين !

وبينما نحن في جدلنا هذا ، لاحظنا فجأة - وفي
وقت واحد - أن جورج لا يزال راقدا .. هذا الرجل
الذي كان منوطا به مهمة ايقاظنا ، والذي أظهر حرصا
مبالغا فيه لمعرفة الموعد الذي نود أن نصحو فيه .
ها هو ذا لا يزال راقدا على ظهره وقعه مفتوح على
مصراعيه وركبتاه ملتصقتان ، وما أن رأيناه حتى
نسبنا جدالنا واندفعنا اليه في وقت واحد وجذبنا كل
الأغصية والملابس من فوقه .. وأعطاء هاريس صفقة
قوية (بالشيشب) بينما أخذت أنا أصبح في أدنه حتى
ايقظنا بطريقة يستحقها .

قال جورج ساخطا وهو يستوى قاعدا :

- ماذا حدث !!

فصرخنا فيه :

- قم أيها الغبي ذو الراس الثقيلة .. ان الساعة

قد جاوزت العاشرة !

فصعق وقفز واقفا وهو يصيح :

— ماذا ؟ !

فوقع في اناء الحمام المملوء بالماء والذي كنا قد
وضعناه أمام سريره بالأمس ، فصرخ وقد مزقه الغيظ :

— أي انسان على وجه هذه الأرض وضع هذا الشيء
هنا ؟

فقلنا له سآخرين ، أنه لابد أن يكون أحق لأنه
لم ير الحوض الموضوع أمام سريره وارتدينا ملابسنا ،
ولكن عندما أردنا تصفيف شعرنا ، تذكرنا أننا قد وضعنا
فرشاة الشعر مع فرش الأسنان بالحقيبة وبالقالي كان
علينا أن ننزل ونفتح الحقيبة ونخرجها .. وبعد أن
فعلنا هذا وأغلقنا الحقيبة .. قال جورج أنه يريد أدوات
الحلاقة من داخل الحقيبة ولكننا أجبناه أن عليه أن
يخرج اليوم بدون حلاقة لأننا لن نهدم كل مارتبناه لأجل
خاطر دقته !

توجهنا لتناول طعام الاقطار ، وبدأ أن

مونتمورينسى قد دعا اثنين من كلاب الحى على طعام
الافطار لكى يودعا ، وقد قضيا وقتها فى العراك عند
درجات سلم الباب فاسكتناهما بمظلة المطر وجلسنا
نتناول الافطار .

امسك جورج الجريدة وأخذ يقرأ بصوت عال
— متعمدا — اخبار حوادث السفن وأنباء النشرة الجوية
التي كانت تنبأ بطقس بارد وأمطار غزيرة مصحوبة
بعواصف رعدية ورياح شرقية شديدة !

أوه . . . اننى اعتقد انه من بين كل الأشياء الحمقاء
التي تملأ الدنيا وتنغص علينا حياتنا فان نشرة التنبؤات
الجوية أسوأها وأكثرها حمقا . . . انها قد تنبئك بدقة
عن طقس أمس أو أمس الأول بينما تنبئك — وبدقة — عن
عكس ما سوف يحدث اليوم .

اننى أذكر عطلة لى مع اصدقائى أفسدناها تماما
بتصديقنا لتنبؤات الأرصاد المنشورة فى الصحف . كنا
فى أواخر الخريف وبدايات الشتاء وقد قررنا قضاء
يوم فى الريف . وبعد أن وصلنا الفندق الذى سننزل

فيه في العطلة قرأنا تنبؤات الأرصاد . وكانت تتنبأ
بأمطار غزيرة مصحوبة بعواصف رعدية تحدث في نفس
اليوم .

وعلى هذا تخيلنا مشروعاتنا في قضاء اليوم في
الخلأ ومكثنا بالداخل تنتظر هطول الأمطار ونتطلع من
النافذة . كان الناس يمرون أمامنا في عربات مكشوفة
وكانوا في منتهى المرح والسعادة . والشمس فوقهم في
غاية الاشراف والسماء صافية لا يعكر صفوها مرور
سحابة واحدة .

أخذنا نقدر على هؤلاء الناس ونقول :

— أه .. لا بد انهم سيعودون لبيوتهم غارقين
في الماء !

وابتسمنا لهذه الفكرة . فكرة ان هؤلاء الناس
السعداء بالشمس المشرقة ، سيعودون لبيوتهم وعلايسهم
تقطر ماء بعد أن يفاجئهم المطر والرياح ، وتركنا النافذة
وعدنا للداخل فأججنا لهيب نار المدفأة وتحلقنا حولها
وقد أمسك كل منا بكتاب يقرأه .

وعند منتصف النهار ، ومع انسكاب أشعة الشمس
داخل الحجرة أصبحت الحرارة لا تطاق .. وأخذ
سؤال حائر يتردد بيننا .. متى ستبدأ تلك الأمطار
الغزيرة والعواصف الرعدية التي نبتأنا عنها الأرصاد
وأخذنا نقول لبعضنا البعض :

— يبدو أنها ستبدأ بعد الظهر .. أوه .. لا بد أن
هؤلاء الناس سيفرقون في ملابسهم المبتلة . يالها من
نكتة !

وفي الساعة الواحدة دخلت صاحبة المنزل
وسألتنا عما إذا كنا لن نخرج للترجمة في هذا الطقس
الجميل ؟ فأجبناها ونحن نضحك ضحكة الخبير العالم
ببواطن الأمور :

— لا .. لا .. لا .. اتنا لانهب أن نبتل . لا .. لا ..

وعندما صار عصر اليوم على وشك الانتهاء دون
أن تسقط قطرة واحدة من السماء ، أخذنا نواسي
أنفسنا بقولنا .. أن المطر سيبدأ فجأة ، بينما يكون
هؤلاء الناس في رحلة عودتهم لبيوتهم وورقتها لن يجدوا

ما يحتمون تحته من المطر وسيبتلون بشكل غير متوقع .

ولكن السماء لم ترسل قطرة واحدة وتمر اليوم كأجمل ما يكون بل وتلقه ليلة دافئة رائعة .

وفي الصباح التالي قرأنا في الجريدة أن الطقس سيكون اليوم دافئاً مستقراً ، وقد ترتفع درجة الحرارة ارتفاعاً طفيفاً . فارتدينا ثياباً خفيفة وخرجنا .

ولم يمض أكثر من نصف ساعة حتى بدأ المطر ينهمر وهبت علينا الرياح قارصة البرودة واستمر الطقس على هذه الحال طول اليوم . وعدنا للبيت مصابين بالصداغ وآلام المفاصل فالتقى كل منا بنفسه فوق فراشه وراح في النوم .

أوه ، سيظل الطقس بالنسبة لى شيئاً يستعصى على الفهم أبداً .

ونعود الى صباحنا هذا ، فقد كان الطقس يبدو جميلاً دافئاً والشمس ساطعة الا ان جورج قد قرأ هذه التنبؤات ليثير قلقنا انتقاماً لما فعلناه به عندما

أيقظنا . وعندما وجد أننا لم نتأثر بكلامه وأنه أضاع
وقته سدى ، قام بعد أن أخذ سيجارتي التي لفقتها
لنفسى بعناية وخرج قاصدا الذهاب الى البيت .

بعد الاقطار . حملنا أنا وهاريس الأمتعة ووضعناها
أمام الباب فى الخارج ووقفنا ننتظر عربة أجرة . .
ويبدو أننا أحسنا صنعا بوضع الأمتعة كلها معا . كانت
هناك الحقيبة الجلدية الكبيرة وأخرى صغيرة بالاضافة
لسلتي الطعام الكبيرتين وكومة كبيرة من الأغذية وأربعة
أو خمسة معاطف ضد المطر عدا بعض المظلات ورغيفا
كبيرا من الخبز وضع وحده فى حقيبة خاصة لأنه كان
كبيرا جدا بحيث لايمكن وضعه فى حقيبة واحدة مع أى
شئ آخر وأيضا رطلين من التفاح وضعناها فى سلة
وحدهما . والمقلاة التى كانت طويلة بحيث كان من
المتعذر حزمها مع بقية الأشياء فلفقناها بالورق وحملناها
وحدها .

كان هذا كثيرا بالتأكيد ، وقد بدانا نشعر بشئ
من الخجل لحملنا كل هذه الأشياء . وان كنت فى
الحقيقة لا أجد مبررا لهذا الخجل .

وعمر وقت طويل ونحن واقفان ولم تمر أية عريسة
أجرة ، وبدلاً من هذا مر بعض الصبية الذين بدا عليهم
الاهتمام بالعرض الذي كنا نقدمه فوقفوا ليتفرجوا
علينا .

وكان أول القادمين صبي ، بيجز ، وبيجز هذا هو
متعهد توريد الفاكهة والخضراوات لنا . وكان كأنما يستخدم
أحط الفتيان وأكثرهم شراً في هذا العالم ليعملوا عنده
كصبية له (يحملون الفاكهة والخضراوات لتوصيلها للمنازل)
عندما ظهر هذا الصبي عند ناصية الشارع كان يسير
مهرولاً ولكنه ما أن وقعت عيناه على منظرنا أنا وهاريس
ومونت موريتسي وكومة الأشياء حتى أبطل في سيره وأخذ
يحملق فينا .

وجهت إليه أنا وهاريس نظرات متهمّة معذرة ،
ولكن .. ضاعفت نظراتنا سدى ، فقد استمر الصبي
في سيره نحونا حثيثاً إلى أن أصبح بينه وبيننا خطوة
واحدة وانحنى مستنداً على درابزين السلم ، وجعلنا
نتسمر في أماكننا بنظراته النافذة .

وفي اللحظة التالية مر صبي اليقال من الجهة
الأخرى للشارع فناداه صبي « بيجز » قافلاً :

— هاى .. ان الدور الأرضى للمنزل رقم ٤٢ قد
بدأ يتحرك !

وبسرعة جاء صبي اليقال واتخذ مكانه على الجانب
الأخر من السلم وتلاه شاب يعمل فى دكان الأحذية
ووقف بجوار صبي « بيجز » ، ثم توافد آخرون وآخرون
واحداً تلو الآخر ، وجاءت عبارات التهم من الشاب
اللطيف الذى يعمل فى دكان الأحذية فقد قال :

— انهم لن يموتوا جوعاً على ما يبدو اليس كذلك ؟

ورد عليه آخر :

— آه . اكنت ستحمل معك شيئاً او شيئتين فقط
لو أنك كنت ستعبر الاطلنطى فى قارب .

وبمرور الوقت تجمع حولنا مجموعات من المارة ،
وبدأ الناس يتساءلون عن سبب هذه (الزحمة) وهالت
مجموعة الشباب لرأى القائل أن احداً على وشك

الزواج وقد أشاروا لهاريش باعتباره سعيد المحظ .
أما مجموعة كبار السن الأكثر رزانة فقد ارتاحوا أكثر
لفكرة أن هناك جنازة وأنتى ربما اكون أخا للفقيد . . !

أخيرا وصلت عربة أجرة قارعة حملتنا وأشياءنا
بينما تخلصنا من صديقى مونتيمورينسى اللذين كانا
قد أقسمنا ألا يفارقاه أبدا . وشققنا طريقنا وسط الزحام
والقى صبرى بيجز ببصلة خلفنا جلبا للحظ .

وصلنا محطة ووترلو فى الحادية عشرة ، وسألنا
عن مكان القطار الذى يتحرك فى الحادية عشرة وخمس
دقائق . وبالطبع لم يكن هناك من يعرف ! فلا أحد فى
ووترلو يعرف من أين أو الى أين يتحرك أى قطار فى
هذه المحطة . أو قل أنه لا يوجد من يعرف أى شيء عن
أى شيء فى تلك المحطة .

كان العمال الذى حمل أمتعتنا يعتقد أن قطارنا
سيتحرك من الرصيف رقم (٢) . ولكن أحد موظفى
المحطة سمع شخصا يقول أن هذا القطار سيخرج من
رصيف رقم (١) وعلى أية حال كان ناظر المحطة متأكدا
من أنه سيتحرك من رصيف (٤) .

ولكى نضع نهاية لهذا الارتباك قررنا الصعود
للسيد رئيس الحركة لسؤاله . وبالفعل أجابنا سيادته
بأنه قد قابل للتو رجلا أخبره أن قطار الساعة ١١ ر ٥٠ يقف
على رصيف رقم (٣) فأسرعنا الى هناك ولكننا عرفنا
عند وصولنا أن القطار المنتظر هناك هو القطار السريع
المتجه الى ساوث هامبتون .

بعد هذا ، قال الحمال أنه يعتقد أنه رأى قطارنا
يقف على رصيف آخر فعاورنا الكرة وعدنا ندور
متجهين الى رصيف آخر ووجدنا سائق الجرار فسألناه
إذا كان متجها الى كنجستون ، فقال أنه ليس متأكدا
على وجه الدقة ولكنه يظهر ذلك . فدسنا ثلاثة شلنات
في يده ورجونا أن يكون هو القطار المتجه الى كنجستون
والذي يتحرك الساعة ١١ ر ٥٠ وقلنا له :

— ولن يعرف أحد أبدا أي قطار أنت ولا الى أين
ستجّه . انك تعرف الطريق فتسلل ببضء واذهب الى
كنجستون !!

فاجابنا الرجل النبيل بقوله :

— حسن ، حقا أنا لا أعلم . ولكنى متأكد من أنه لا بد أن يتجه قطار الى كنجستون . وأنا صافعل وهكذا وصلنا كنجستون عن طريق سكك حديد لندن والشمال الغربى . وعرفنا بعد ذلك أن القطار الذى حملنا كان قطار البريد وأنهم قضوا عدة ساعات فى محطة ووترلو يبحثون عنه ولم يعرف أحد ما مصيره .

ووجدنا القارب يقبع فى انتظارنا تحت القنطرة فى كنجستون فشققنا اليه طريقنا ورتبنا فيه الأمتعة ثم خطونا داخله . وسألنا (المراكبى) قائلا :

— هل كل شيء على مايرام ياسادة ؟ !

فأجبناه معا :

— على مايرام تماما .

واندفعنا فوق صَفْحَةِ النهر الذى سيكون ولأسبوعين قادمين وطننا الذى نعيش فيه . .

الفصل السادس

التيه في قصر هامبتون

كان يوما رائعا من أيام الربيع الأخيرة ، وكان كل ما حولنا يصنع صورة للربيع مشرقة وهادئة • مملوءة بالحيوية ومملوءة بالسلام • وبينما كان هاريس يجدف بنشاط رقدت أنا على ظهري وأخذت أحلم بأيام كنتجستون الخوالي •

لكن ، على أية حال سرعان ماقال هاريس أنه عمل بما فيه الكفاية وأن دوري قد جاء لأقوم بالتجديف • ومررتنا في سيرتنا بقصر هامبتون المشهور بمناخه ، وكان يبدو هادئا ينعم بسلام جميل • • وبينما أنا

هسترسيل في افكارى الحاملة اذ بهاريس يقطعها على
ليسألنى ان كنت دخلت لمقاهة قصر هامبتون قبل هذا ام
لا ؟

ثم استطرده في حكايته قائلا ، انه دخلها ذات مرة
ليبدل شخصا آخر على الطريق * وقد درسها بواسطة
خريطة * ولكم كانت الخريطة بسيطة لدرجة (العبط)
لدرجة انه تصور ان الخريطة قد رسمت كدعابة ، حيث
انها لم تكن تبدو كخريطة حقيقية بل مجموعة من
الخطوط المتداخلة وكان الرفيق الذى اخذه هاريس ليريه
تلك المقاهة هو ابن عم له من الريف * وقد قال له
هاريس :

- سوف تدخل هناك فى الحال ، حتى تستطيع ان
تحكى وتقول انك دخلت هذا المكان * ولكنى احب ان
اقول لك انه من التفتيل ان نسمى هذا المكان تيبا او
مقاهة ان انه غاية فى البساطة والوضوح كل ما عليك
هو ان تحتفظ دائما باتجاهك الى اليمين من لحظة دخولك
الى ان تخرج - على أية حال سوف نتجول سويا فى
الداخل مدة عشر دقائق ثم نخرج لنتناول غداء خفيفا *

وفور دخولهما قابلا بعض الزائرين الذين اشتكوا
لهاريس قائلين أن لهم أكثر من ثلاثة أرباع الساعة في
هذه المتاهة وقد نالهم منها ما يكفي . فقال لهم هاريس
أنهم يمكنهم اتباعه أن أرادوا أنه دخل لقوة وليسوف
ياخذ جولة صغيرة في القصر ثم عايلبت أن يعود
ويخرج ثانية . فشكروه وقالوا أن هذا عطف كبير منه
ومن ثم تبعوه .

واثناء سيرهم تجمع خلفهم المتأهون الذين يرغبون
في الخروج حتى صار كل من في المتاهة يسير خلف
هاريس . حتى أولئك الذين استسلموا وفقدوا كل أمل
في الخروج من هذا المكان ورؤية عائلاتهم وأصدقائهم
مرة ثانية . حتى هؤلاء تشجعوا وانتعش الأمل في
نفوسهم عند رؤية هاريس وجماعته قانضموا الى تلك
المظاهرة سائلين الله أن يباركه !

وقد قدر هاريس عدد من تبعوه بحوالي عشرين
شخصا . . . بالاضافة لسيدة تحمل طفلها على كتفها
وتعلقت بذراع هاريس خشية أن تفقده أو يتود عنها .

وظل هاريس - حسب فكرته - محتفظا بالاتجاه
لليمين باستمرار . ولكن الطريق بدا طويلا حتى قال
ابن عمه انه يعتقد ان هذا القصر كبير جدا فرد عليه
هاريس بقوله :

- اوه ! بل هو واحد من اكبر القصور في أوروبا
كلها .

ورد ابن عمه :

- لابد ان يكون كذلك . فقد سرنا داخله اكثر من
ميلين حتى الآن .

حتى هاريس عزا قلبه الشك وبدأ يحس ان الامر
صار غريبا . ولكنه استمر في السير بنفس طريقته حتى
هروا في سيرهم بقطعة من الكعك ملقاة على الأرض في
أحد الممرات والتي أقسم ابن عمه انه رآها في بعينها
منذ سنة دقائق فقط ولكن هاريس قال :

- لا مستحيل .

فصاحت فيه المرأة التي تحمل طفلها على كتفها

ـ لا ليس مستحيلا البتة .

قالت السيدة هذا بلهجة الواثق لأنها هي بنفسها

كانت قد أخذتها من يد ابنها وألقته على الأرض قبيل
أن ترى هاريس مباشرة . ثم أضافت السيدة انها تتمنى
لو أنها لم تر هاريس قط . وعبرت عن رأيها فيه بصراحة
بقولها أنه مخادع وأنه قد ضللهم جميعا فاغتاظ هاريس
وأخرج الخريطة وجعل يشرح فكرته للجميع . فقال أحد
الموجودين :

ـ لا بأس باتباع الخريطة ان استطعنا ان نعرف

أين نقف الآن .

لكن أحدا لم يكن يعرف . . وهاريس لم يكن يعرف .

لهذا فقد اقترح أن يعودوا ثانية للمدخل ويبدأوا من
جديد . ولكن أحدا لم يبد حماسا لفكرة أن « يبدأوا من
جديد » وأن الكل قد وافقوا على العودة الى المدخل ومن
ثم استداروا وساروا خلف هاريس ثانية في عكس
الاتجاه . ومضت عشر دقائق أخرى ثم وجدوا أنفسهم
مرة أخرى في المركز .

وفكر هاريس في أن يتظاهر بأنه قد وصل إلى مكان
يهدف إليه ولكن الجماعة بدت خطرة وعتفزة مما حدا
به إلى أن يقرر التعامل مع الموقف على أنه مصادفة .

على الأقل صار لديهم الآن شيئاً يهدأون منه . انهم
على الأقل يعرفون أين هم الآن . وبالتالي فتحوا الخريطة
وبحثوها ثانية وبدأ الأمر أبسط من أى وقت مضى
وأعادوا الكرة للمرة الثالثة . ولكن وبعد مرور ثلاث
دقائق أخرى وجدوا أنفسهم في المركز حيث كانوا .

بعد هذا لم يستطيعوا الوصول لشئ . فحيثما
ساروا أو اتجهوا ينتهى بهم المطاف إلى نقطة البداية . .
المركز . لدرجة أنه صار من المألوف أن يتوقف البعض
في المنتصف بينما يدور الآخرون دورة ويعودون لنفس
المكان ثم يتبادلون الموقف فيستريح من كان يمشى
ويعشى من استراحوا وأخرج هاريس خريطة ثانية
ولكن مجرد ظهورها أثار غضب الجميع وقال هاريس
أنه قد بدأ ينمو داخله شعور بأنه شخص غير مرغوب
في وجوده .

أخيرا صرخوا جميعا بكل قوتهم ونادوا على الحارس . وسرعان ما تسلق رجل السلم الخارجى وصاح يناديهم ويشير الى الاتجاه الذى يجب أن يسيروا فيه ولكنهم لم يفهموا فأشار لهم بما يعنى أن يمكنوا حيث هم حتى يأتى هو لهم .

كان حارسا شابا ، عين حديثا فى القصر . وعندما دخل القصر لم يصل الى مكانهم بل تاه هو الآخر . كانوا يرونه من وقت لآخر يجرى على الجانب الآخر من السياج . وكان يراهم فيسرع بالدوران ليصل اليهم . وكانوا ينتظرون . وبعد دقائق يعود فيظهر ثانية فى نفس البقعة التى ظهر فيها من قبل ويسألهم أين ذهبوا !

واضطرب الجميع للانتظار حتى عاد أحد الحراس المقدامى من غدائه حتى يخرجهم من قصر التيه هذا .

وعلق هاريس على هذه القصة بانها كانت متاهة ممتعة . وقد قررنا كلانا أن نجعل هاريس يدخلها ونحن فى طريق عودتنا .

كان من المفروض أن نقابل جورج فى « شيبرتون »

في تمام الخامسة . وعندما ذكرت هاريس بهذا وجدته قد غضب فجأة وأخذ يسب جورج ويتساءل في غضب عنيف . لماذا كان جورج أحق هكذا طول اليوم - فتركنا نجده وحدنا بهذا القارب القديم حتى نقابله . ولماذا لم يأت جورج ويفعل شيئا معنا ؟ لماذا لم يأخذ هذا اليوم إجازة من العمل ويأتي معنا؟ أية فائدة يجنيها البنك من عمله به ؟ . واستمر هاريس في سيل سباب واستلته قائلا :

- اننى لم أزد أبدا . فعل شيئا ذا قيمة في أية مرة زرته فيها هناك . كل ما يفعله هو أنه يجلس خلف حاجز من الزجاج محاولا المتظاهر بأنه يفعل شيئا . . . أى نفع يرجى من رجل يجلس خلف قطعة من الزجاج . . . اننى أعمل لأعيش فلماذا لا يستطيع أن يعمل هو ؟ اننى لا أصدق أن جورج يعمل في هذا البنك أصلا . . . بل لابد أنه يلعب ويلهو في مكان ما . أن هذا هو ما يفعله الآن بالتأكيد تاركنا أيانا نقوم بكل العمل وحدنا ! من الحكمة دائما أن يترك هاريس ليفرغ ما عنده في مثل تلك الحالات . . . فسرعان ما انتهت شحنة غضبه ويعود هادئا وديعا كمعادته . . .

الفصل السابع

عن الأغنيات الهزلية

توقفنا في طريقنا وجلسنا تحت ظلال أشجار
كيعبتون وبدأنا نتناول غداءنا . كنا نجلس في بقعة
بديعة ساحرة حيث تنبسط الحشائش الخضراء على
امتداد ضفة النهر بينما تحوطنا الأشجار الجميلة
الباسقة .

كنا قد وصلنا للمرحلة الثالثة من الغداء - الخبز
والزبد - عندما هل علينا رجل لطيف لا يرتدي سقرة
فوق قميصه ويدخن غليوناً قصيراً وسألنا إذا كنا نعلم
أننا نجلس في بقعة خاصة . فكان ردنا أننا لم نفكر في
هذا الأمر كثيراً حتى الآن ، ولكن ان هو أعلن لنا هذا

بلسانه شخصيا فانتقا لن نتأخر لحظة عن تصديقه وبدون تردد .

وبالفعل ألقى السيد المهذب علينا اعلانه وبدورنا صدقناه في الحال . ولكنه ظل واقفا لم يتحرك وبدأ عليه أنه غير راض بهذا التصديق ، لهذا سألناه ان كان هناك شيء آخر نستطيع ان نفعله من أجله حتى ان هاريس - الذي يتميز بالوداعة - قدم اليه قطعة من الخبز بالمرسى ولكنه رفض ذلك بغضب شديد بل وأضاف بحدة وتحد أن واجبه يحتم عليه اللقاءنا خارج هذا المكان .

فقال له هاريس بهدوء ووداعة أنه اذا كان هذا هو واجبه فان عليه أن يقوم به ، ثم سأل الرجل عن أحسن وسيلة يمكن بها تحقيق هذا الواجب . كان هاريس ضخم الجثة قوى البنيان ، فنظر اليه الرجل وحملق فيه من أعلى الى أسفل وعن اليمين الى اليسار ثم قال بنبرة فيها من التردد أكثر مما فيها من الحدة - أن عيله ان يذهب أولا ويسأل سيده النصيحة ثم يعود ليلقى بنا في النهر .

وبالطبع لم يعد أبدا وبالتأكيد كان كل مايريده من
رهابنا هو أن تعطيه شلنا . فهناك الكثيرون من أمثال
هذا الرجل الفظ الذين يكسبون عيشهم خلال الصيف
بالحصول على الاتاوات من نوى العقول الضعيفة
بمثل هذه الطريقة .

وخير وسيلة لمواجهة مثل هذه المواقف . هو أن تترك
اسمك وعنوانك لهذا الدعي ليعرفهما لصاحب الأرض
ان كان لها صاحب . ليستدعيك للمحكمة ويحاسبك عما
أحدثت من أضرار بجلوسك على هذه البقعة الصغيرة
من الأرض في حديقته . غير أن ما يحدث في الواقع
هو أن معظم الناس يكتنون من الضعف والخوف بحيث
أنهم يفضلون أن يدفعوا لمثل هذا الدعي ما يطلب منهم ،
بدلا من أن يضعوا نهاية لكل هذا العبث بمجرد اظهارهم
لشيء من الحزم .

وأحيانا كثيرة - أيضا - يقع اللوم على ملاك
الأرض أنفسهم . فبعض هؤلاء الناس يريدون وقف
نهر التيمس عليهم وأنهم ليفعلون هذا حقيقة على راغد
النهر وقروعه الصغيرة . فهم يغرسون الأعمدة في قاع

النهر ثم يشدون السلاسل الحديدية من الضفة للضفة
المقابلة بطول عرض الراغد ويضعون لافتة خشبية كبيرة
على كل شجرة . ولكم يثير غضبي مرأى هذه اللافتات
حتى أحس اننى لو رأيت صاحبها أو من وضعها
لقتلته ودفنته ووضعت هذه اللافتة البيضاء فسوق
قبره بدلا من شاهد القبر الرخام !

وقد وصفت مشاعرى هذه لهاريس الذى عقب
بقوله أنه يود لو يفعل أكثر من هذا . . فقد قال انه لن
يقتل واضع هذه اللافتة وحسب . ولكنه يود لو يقتل
عائلته كلها أيضا ثم يحرق بيته ويقف على أطلاله ويفنى
أغنيات هزلية .

أوه ، أغنيات هزلية ! انكم لم تسمعوا - أبدا -
هاريس وهو يفنى أغنياته الهزلية والا لعلمتم أى تهديد
مروع هذا الذى توعد به واضع اللافتة . ان من أفكار
هاريس الثابتة - يأسا - هي أنه يعتقد أنه يحسن غناء
الأغنيات الهزلية . ولكن - ومن بين الأفكار الثابتة
أيضا - لدى أصدقائه الذى سمعوا احدى محاولاته

فى الغناء هى أنه لا يستطيع ولن يستطيع الغناء ولهذا،
يجب ألا يسمح له حتى بمجرد المحاولة .

فعندما يكون هاريس مدعوا - مثلاً - فى حفل
ويطلب اليه الغناء فانه يرد بثقة فائقة قائلاً :

- ولكنى أغنى الأغانى الهزلية فقط كما تعلمون .
وهو يقول هذه العبارة - طبعاً - بطريقة توحى
بانه لايجب أن تفوتك فرصة سماعه فى احدى أغنياته
الهزلية ولو مرة واحدة فى حياتك .

ولهذا يقول المضيف بكل عرفان :

- أوه ، ان هذا سيكون شيئاً لطيفاً جداً ، أسمعنا
أغنية ياسيد هاريس !

فيقوم هاريس ويتوجه الى البيانو فى سعادة الرجل
الكريم عندما يمنح الآخرين شيئاً ذا قيمة ثم يقول
المضيف :

- من فضلكم السكوت . فالسيد هاريس سيغنىنا
أغنية هزلية !

وتسمع همهمة تسرى بين الضيوف . أوه . . يالها
من متعة . . ثم يتوافدون من كل مكان في البيت
ويتزاحمون داخل غرفة البيانو ويتحلقون حول هاريس
في صمت مبتهجين ، ثم . . يبدأ هاريس الغناء .

حسن ، انكم على أية حال لن تتوقعوا صوتاً جميلاً
أو حساً موسيقياً عالياً ، فالأغاني الهزلية لا تحتاج
لمثل هذا عادة . ولن تبالوا اذا وجد المغنى - وهو فى
وسط غنائه - أنه يغنى من طبقة عالية جداً فيسارع
بالهبوط فجأة . وقد لا تبالون كذلك ان هو وقف امام
البيانو وتوقف عن الغناء وأخذ يجادل عازف البيانو ثم
يعاود الغناء فجأة . . ولكنكم على الأقل تحبون أن
تسمعوا الكلمات الظريفة التى يغنيها فمن غير المستحب
أن نستمع الى مغن لا يحفظ من أغنيته أكثر من السطور
الثلاثة الأولى من المقطع الأول ، ويأخذ فى ترديدها
واعادتها كلما انتهت . . كما أنكم لا تتوقعون أن تسمعوا
المغنى وهو يتوقف فجأة عن الغناء ليضحك ببلاهة
ثم يقول :

— أوه ، انها فى غاية الظرف ولكن لا أستطيع أن
أتذكر بقيتها !

ثم يحاول أن يتذكر فيخفق • حتى يتذكرها فجأة
بعد أن شرع فى أغنية أخرى مختلفة تماما فيقطع غناءه
ويعود للأغنية الأولى دون كلمة انذار أو تنبيه •

هكذا كان يسير غناء هاريس وهو لا يدري أى أحق
يصنع من نفسه ، كما لا يدري مبلغ الضيق والألم
الذى يسببه لأناس لم يؤذوه أبدا من قبل • • انه يتصور
— بأمانة — أنه يقدم لهم شيئا مبهجا • • وعلى هذا ،
يعلن بكل فخر أنه سيقدم لهم أغنية أخرى !

ان الحديث عن الاغنيات الهزلية والحفلات ذكرنى
بتجربة طريفة تعرضت لها أنا شخصيا ذات مرة • •

كنا — فى احدى الحفلات — تمثل مجموعة من
الرجال فى غاية الأناقة والذكاء • • وكنا نرتدى أفخر
الثياب ونتحدث بحيوية ومرح • • هكذا كنا جميعا عدا
شابين بدا عليهما القلق والضيق • الحقيقة أننا — وهذا
ما كنت أتصوره — كنا أكثر منهما ذكاء وثقافة ، فلم

يستطيعا مجازاة أحاديثنا الذكية الرفيعة المستوى .
فأصبحا بذلك خارج الصحبة تماما . كانا معنا وكانهما
ليسا معنا . . . وقد وافقنسى على هذا الرأى كل
الحاضرين .

استمعنا لموسيقى من تأليف عباقره الموسيقى الألمان
وتناقشنا فى الحياة وعن المثل العليا والأخلاق ، وقرأ
لنا أحد الحضور قصيدة فرنسية رائعة ، وبعدها غنت
لنا سيدة جميلة أغنية حب إسبانية رقيقة ، وكم كانت
جميلة وحزينة حتى أن الدموع قد انهمرت من عينى
واحد أو اثنين منا . . !

بعد هذا سألنا الشابان ان كنا قد سبق لنا الاستماع
« للهر » سلوسن يوشين ، الذى كان قد وصل لتوه ونزل
مباشرة الى غرفة الطعام . . وهو يغنى أغنيته الفكاهية
الهزلية الألمانية العظيمة . . انه مدرس ويحمل درجة
الأستاذية فى الموسيقى من جامعتهم ؟ !

وعلى قدر ما تذكرنا لم نكن قد استمعنا الى أغنيته
هذه من قبل . فقال الشابان انها اظرف أغنية هزلية على

الاطلاق وأضافا أنهما على استعداد لاقتناعه بغنائها لنا
أن نحن طلبنا ذلك .

وقالا - أيضا - أن الأغنية ظريفة لدرجة أنه عندما
غناها « الهر » سلوسن بوشين أمام الامبراطور
الألماني ذات مرة أغمى عليه واضطر رجال البلاط لحمل
جلالته الى مخدعه .

وزاد الشابان بأن قالوا أنه لا يوجد من يستطيع
أداء هذه الأغنية مثلما يؤديها « الهر » سلوسن بوشين
.. انه يغنيها بوقار وجدية لدرجة يبدو منها كأنه يقنى
فى جنازة وهذا يؤدي لانفجار الضحكات أكثر وأكثر .

فقلنا جميعا أننا فى غاية الاشتياق لسماعها وأننا
فعلا فى حاجة لقدر جيد من الضحك .. ولهذا هبطنا
الى غرفة الطعام وعادا ومعهما « الهر » سلوسن بوشين
.. وكان يبدو سعيدا جدا لأننا طلبنا منه الغناء وهذه
الأغنية بالذات . لأنه صعد بسرعة وجلس مباشرة الى
البيانو دون أن ينبس ببنت شفة .

وأخذ الشابان يهيسان - بالانجليزية - وهما

يَقْقَان وَيَتَخَذَان مَكَانِيهِمَا خَلْفَ ظَهْرِ الْمَبْرُوفِيَسُور :

— أُوهُ ، أَنْكُمْ سَتَسْعِدُونَ حَقًّا ، وَلَسَوْفَ تَضْحَكُونَ
مِنَ الْأَعْمَاقِ .

وَعَرَفَ السَّيِّدَ سَلُوسَن بوشسِن الْمَقْدَمَةَ الْمَوْسِيقِيَّةَ
الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَنْبِيءُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِأَغْنِيَةٍ ضَاحِكَةٍ .. كَانَتْ
حَزِينَةً وَمَخِيفَةً بِدَرَجَةِ غَرِيبَةٍ ، وَلَكِنَّا مِمَّنَّا لِبَعْضِنَا
الْبَعْضُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْأَلْمَانِيَّةُ ، وَهِيَ أَنَا أَنْفُسُنَا
لِلْإِسْتِمْعَانِ بِهَا .

فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّنِي شَخْصِيًّا لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ الْأَلْمَانِيَّةَ جَيِّدًا
كَتَيْتُ قَدْ تَعَلَّمْتُهَا فِي الْمَدْرَسَةِ وَلَكِنِّي نَسِيتُ كُلَّ مَا تَعَلَّمْتُهُ
بَعْدَ تَخْرُجِي بِعَامَيْنِ ، وَقَدْ شَعُرْتُ بِتَحَسُّنٍ مَلْحُوظٍ بَعْدَ
هَذَا .

لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَوَدُ أَنَّ أَشْعُرَ أَيًّا مِنَ الْمَوْجُودِينَ بِهَذَا
النَّقْصِ فِي تَعْلِيمِي . لِهَذَا خَطَرْتُ لِي فِكْرَةً جَيِّدَةً ، عَلَى
الْأَقْلَ بَدَتْ لِي فِكْرَةً طَيِّبَةً ، فَقَدْ رَكُزْتُ بِصُرَى عَلَى
الشَّابِيعِينَ الْوَاقِفِينَ خَلْفَ الْأَسْتَاذِ وَتَتَبَعْتُ حَرَكَاتِهِمَا ..
أَبْتَسِمُ عِنْدَمَا يَبْتَسِمَانِ ، أَقْبِيقُهُ عِنْدَمَا يَقْبِيقَانِ . وَأَحْيَانًا

كنت أضحك من تلقاء نفسى عندما استشعر شيئا طريفا
ربما فات على الآخرين . . وكنت أعتبر هذا التصرف
غاية فى الذكاء . .

وبمرور الوقت وتتابع مقاطع الأغنية لاحظت أن
عيون الآخرين قد تركزت على الشابين وأخذ الكل
يضحكون عندما يضحك الشابين ويبتسمون عندما
يبتسمان وطوال الأغنية أدت هذه الطريقة - الذكية -
مهمتها على أكمل وجه .

ولكن لم يبد على الأستاذ الألمانى أى شعور
بالسعادة . وفى البداية وعندما بدأنا نضحك بسدت
على وجهه علامات الدهشة وكان الضحك كان آخر
ما يتوقع من صور التحية وإظهار الإعجاب بفنه . وقد
اعتقدت أن هذا شئ مضحك فى حد ذاته . وقلنا
لبعضنا أن طريقته الصارمة هذه هى روح الأغنية
المرحة . وعندما تمادينا فى الضحك تحولت أمارات
الدهشة على وجهه الى علامات الغضب ثم نظر شبرا
الينا جميعا - عدا الشابين اللذين كانا مقفان خلف ظهره
قلم يرضا . وهذا جعلنا نضحك أكثر بل صحننا أن هذا

سيقتلنا من الضحك .. بل وقلنا أيضا ان الكلمات وحدها بدون تعمد الجدية من البروفيسور وكانت كافية لتغيير ضحكاتنا .. اوه ان هذا لكثير !

وانهى البروفيسور أغنيته وسط عاصفة من الضحك وعبارات الاستحسان من قبيل : « ان هذا أطرف عاسمنا من غناء هزلى » مثلا .. بل ان بعضنا سأل البروفيسور لماذا لا يترجم أغنيته للانجليزية حتى يتسنى لعامة الناس - ممن لا يفهمون الألمانية - ان يعرفوا كلماتها ويتعلمون كيف تكون الأغنية الهزلية بحق .

وهنا وقف « الهر » سلوسن بوشين وقد فقد سيطرته على نفسه تماما وأخذ يسبنا بالألمانية محركا ذراعيه فى الهواء فى غضب عنيف موجهها الينا كل الألفاظ البذيئة التى يعرفها فى اللغة الانجليزية .. وقال وهو فى غاية الألم ان أحدا لم يهنه فى حياته مثلما فعلنا ..

واتضح لنا بعد هذا ان الأغنية لم تكن هزلية على الإطلاق ، بل كانت تحكى عن فتاة عاشت فوق جبال هارتز وضحت بحياتها لتنقذ حياة من تحب ، ولكنها

ماتت هي الأخرى . . وتقابلت روحاهما في السماء . .
وتعزى الأغنية الى أن يفترقا ثانية في مقطعها الأخير
انى غير متأكد تماما من التفاصيل ولكن الأغنية كانت
على أية حال غاية في الحزن بل ان البروفيسور سلوسن
بوشين قال انها تعتبر واحدة من أرق القصائد الألمانية
وأكثر حزنا . . !

كان موقفا صعبا لنا جميعا . ولم يكن ثمة مايمكن
أن نقوله لنعتذر به . وأخذنا نتلفت حولنا بحثا عن
هذين الشابين الماكريين اللذين أوقعانا في مثل هذا
الصرج . لكنهما كانا قد تسللا للخارج بهدوء شديد
فور انتهاء « الهر » سلوسن بوشين من أغنيته . .

وكانت هذه هي نهاية الحفل . فلم يودع أى من
أصدقائه ، بل هبطنا لأسفل قرادى نمشى بهدوء وببطء
وأخذنا من الخدم قبعاتنا ومعاطفتنا وفتحنا الباب وانتقلنا
الى الخارج وكل منا يتحاشى عيون الآخرين . وأبدا . .
أبدا لم أحاول سماع أغنيات ألمانية بعد هذا .

عبرنا هاريس وأنا (والمقون) حيث أقام قيصر
معسكره ذات يوم . وعند قنطرة (واى) وجدنا جورج

بانتظارنا .. وقد حياه مونتمورينسى محدثا ضوضاء
بينما صحت انا وزمجر هاريس .. وحرك جورج قبعبته
فى الهواء وصاح يرد على تحيقتنا فتجمع الناس بسرعة
قلنا منهم ان احدا قد سقط فى النهر .. وبدا عليهم
الاحباط اذ وجدوا ان هذا لم يحدث !

كان جورج يحمل فى يده حقيبة مستديرة ومقلطحة
ولها يد طويلة ملتصقة بها .. فسأله هاريس متهمكا :

— ما هذا يا جورج ؟ مقللة ؟

واجاب جورج بنظرة حادة :

— لا انها « باتجو » .. ان كان من على النهر يحملون
مثلا .. انها (مودة) هذا الموسم ..

— لم اعرفك قط عازفا للبانجو ..

وفى صوت واحد قلنا انا وهاريس :

— هل تفعل ؟ !

فأجاب جورج ببساطة :

- لا ، ليس بالضبط . ولكنها شيء سهل جدا . .
هكذا قيل لي . . كما أنني اشتريت كتابا يعلمنا طريقة
العزف ، وأحمله معي .

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الثامن

الليلة الأولى في القارب

الآن وبعد أن تمكنا من جورج ، فرضنا عليه أن يقوم بشيء من العمل . . لم يكن بالطبع يريد أن يعمل شيئاً وأخذ يقول مبرراً رفضه - أنه مر بوقت عصيب في المدينة ، ولكن هاريس الذي لم تكن الشفقة من طبعه قال بشماعة :

- أه ، الآن حان الوقت لتحصل على بعض الأوقات الصعبة فوق النهر . . كنوع من التغيير ، إن التغيير مفيد لكل انسان . . هيا ، قم من مكانك وتعال خذ المجدافين .

لم يكن من الممكن لجورج أن يتهرب من هذا رغم
أنه اقترح - كوسيلة للهرب - أن يقوم هو بعمل الشاى
بينما نستمر أنا وهاريس فى التجديف ودفع القارب
فوق صفحة الماء ، لأن عمل الشاى - كما قال - عمل
يثير الضيق وأنا وهاريس يبدو علينا الارهاق والاحتياج
لكوب من الشاى . الا أن ردنا على هذا الكلام كان
القاءنا بالمجدافين نحوه فتلقفهما صاغرا وبدأ يجدف .

جدف بنا جورج بقوة الى « نبتون هوك » وهناك
تناقشنا فى مسألة المبيت . وقررنا أن نبيت على سطح
القارب . . وكان علينا اما أن نتوقف هنا فى « نبتون
هوك » أو نواصل السير الى « ستيلز » . . وبدأ لنا أنه
مازال من المبكر تغطية القارب بغطائه الآن مادامت
الشمس لم تغرب بعد . ولهذا اتفقنا على أن نواصل
التجديف الى « رانيميد » على بعد ثلاثة أميال ونصف
حيث نجد مكانا تكثر فيه الأشجار حيث نجد ما نستظل
ونحتفى تحته . .

ولكم تمنينا بعد هذا لو أننا لم تغادر « نبتون هوك »
. . ان التجديف ضد التيار لمسافة ثلاثة أميال ونصف

قد لايعنى الكثير عندما يكون اليوم فى بدايته ولكن الآن
وقى نهاية اليوم يكون شيئا مرمقا خاصة اذا كان اليوم
طويلا كالذى مر بنا ..

والانسان فى مثل تلك الحالة لا يشعر بأدنى اهتمام
للمناظر الجميلة حوله .. ولن يتكلم أو يضحك ..
وسيخيل اليه - بعد كل نصف ميل - أنه قطع ميلين .
وغالبا لن يصدق أنه مازال حيث كان وقد يتهم الخريضة
بالتخريف !

كانت الساعة قد أصبحت السابعة والنصف عندما
وصلنا الى « ستيلز » .. وأخذ جورج يجدف بهدوء
ويبطء محاذيا ضفة النهر اليسرى . باحثا عن بقعة
ترسو عندها .. كنا نقوى أن نذهب الى جزيرة « حاجنا
كارتا » الجميلة حيث تهب النسائم العليلة خلال الوادى
الأخضر . وكنا نود أن نخلد للنوم فى ركن من التهر
هادئ هناك حيث تحمينا الأشجار . ولكننا لم نجد فى
أنفسنا - فى هذه الساعة - نفس الحماس للجمال
والهدوء عند « حاجنا كارتا » - الذى كنا عليه فى
الصباح .

فكل ما كنا نتوق اليه الآن هو تناول العشاء والتوم
العقيق . . ولكننا على أية حال جددنا الى الجزيرة
ودرنا حولها الى ركن رائع تحت شجرة كبيرة ربطنا
القارب الى جذورها المعدة على الشاطئ ورسونا .

وبعد أن ربطنا القارب الى جذور الشجرة قلنا اننا
سنجلس ونتناول طعامنا ولكن جورج أصر على أن نفرغ
الغطاء فوق القارب قبل أن يحل المظلام ويصبح العمل
عسيراً . وبعد أن تؤدي كل ما علينا من عمل ، نجلس
ونتناول طعامنا ببال خال وذهن صاف . .

احتاج شد الغطاء على القارب لعشاء ومجهود
أكثرهما تخيل أي منا . فقد كان الأمر يبدو بسيطاً عند
أول نظرة ، فما عليك الا أن تأخذ ثلاث حلقات حديدية
مجهزة وتثبتها في القارب في الثقوب المعدة لها ، ثم
تشد الغطاء فوقها وتثبته فيها . . هكذا لن يستغرق
العمل أكثر من عشر دقائق . أو أن هذا هو ما ظنناه
في البداية وما أسرع ما تبدي لنا سوء تقديرنا .

فقد أخذنا الحلقات الحديدية وبدأنا نضربها في

الفتحات المخصصة لها . . بالطبع أنتم لاتعتبرون هذا العمل من الأعمال الخطرة . ولكننا - نحن - عندما نعود بذاكرتنا لما حدث في ذلك اليوم نعجب أن أحدا منا قد بقي على قيد الحياة ليروي هذه القصة الآن .

رباه ! انها لم تكن حلقات . . بل كانت أرواحا شريرة . في البداية رفضت أن توضع في مكانها باحكام . . فكان علينا أن نقفز فوقها كلها ، وندق عليها بمطرقة المقارب . . وبعد أن استقرت في أماكنها اكتشفنا أننا لم نضع حلقة في مكانها الصحيح .

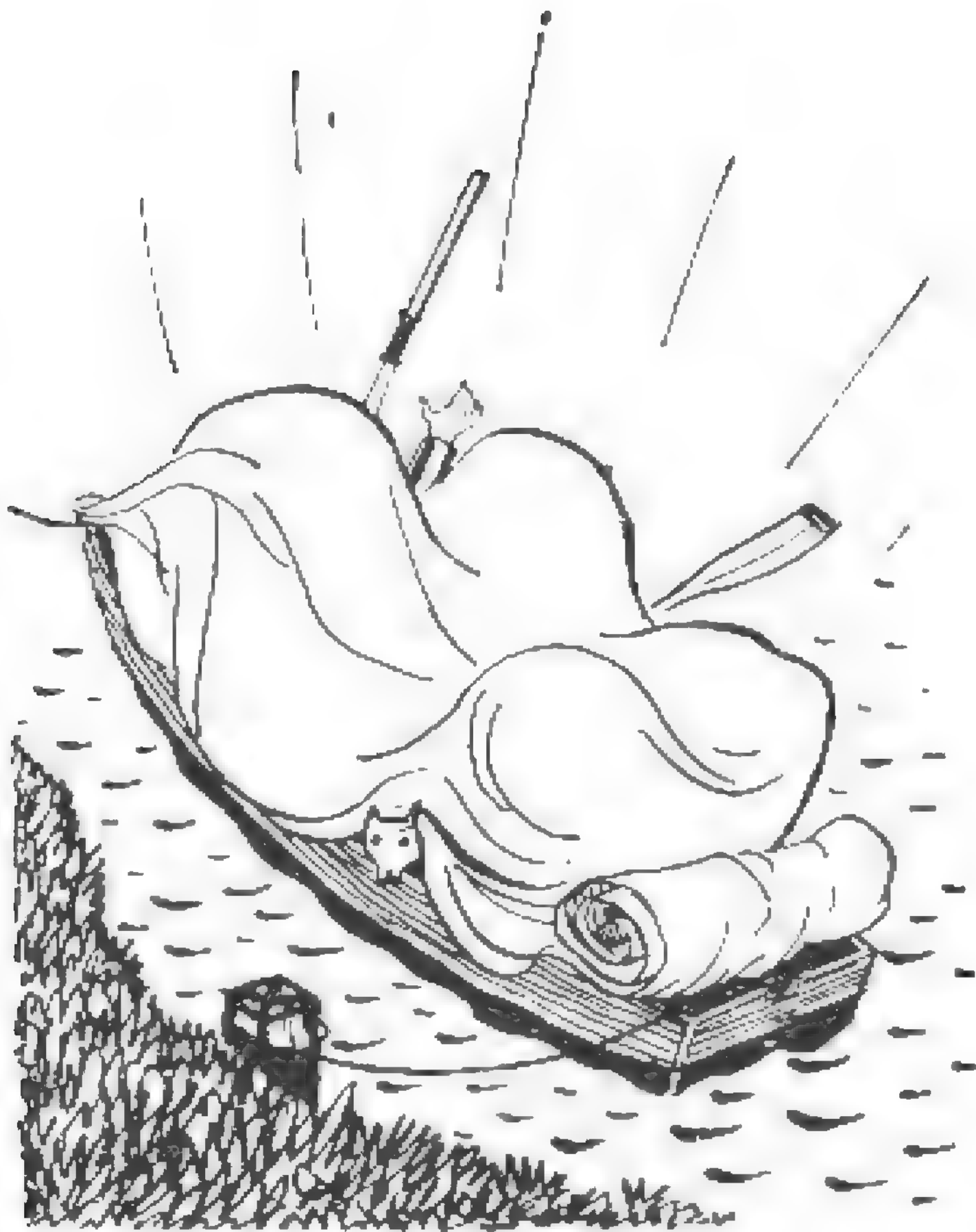
ولم تخرج الحلقات من الفتحات المخطأ الا بعد أن تعارك اثنان منا معها لمدة خمس دقائق ، بعدها قفزت خارجة فجأة محاولة أن تلقى بنا في النهر . .

ومرة أخرى بدأنا نثبتها - في أماكنها الصحيحة هذه المرة - وكنا كلما طرقتنا على طرف الحلقة لنثبتها ، ضربنا الطرف الآخر في رؤوسنا . وأخيرا تم لنا تثبيتها . . ثم كان علينا أن نعاني مثل ما عانينا وأكثر لتثبيت الغطاء في الحلقات . . فقد قرد جورج الغطاء

وثبت أحد طرفيه فى مقدمة القارب بينما وقف هاريس فى المنتصف ليأخذ الغطاء عن جورج ويمرره لى حيث كنت أقف عند مؤخرة القارب لاستقباله . ولكن الغطاء استغرق وقتا طويلا ليصل الى !

فبعد أن أدى جورج نصيبه من العمل وقام به خير قيام جاء الدور على هاريس الذى كان ماكلف به من عمل جديدا عليه . . وبشكل ما - لايزال غامضا - استطاع هاريس أن يجعل الغطاء يلتف حوله وأصبح سجيئا داخله . وأخذ يضرب برجليه ويديه ويتحرك بعنف ليتخلص منه دون جدوى . وأثناء حركته هذه رفس جورج الذى أخذ يتعارك بدوره فأوقع نفسه فى نفس الفخ . . !

أنا لم أدرك هذه القصة وقت وقوعها ، وشخصيا لم أفهم ماكان يحدث . فقد طلب منى أن أقف عند ذيل القارب وانتظر الغطاء . وهذا ما فعلت . فقد وقفت - أنا ومونت مورينسى - ننتظر فى منتهى الصبر بالطبع كنا نرى الغطاء وهو يجذب ويلقى ويرفس ، ولكنى



محاولة وضع المغطاء على المقارب :

ظننت أن هذا جزء من الطريقة التى يجب اتباعها لتثبيتته
ولهذا لم أ تدخل فيما يحدث .

وانتظرت حتى طال بى الانتظار وبدأ أن الموقف
يزداد تعقيدا ، حتى ظهرت رأس جورج من تحت الغطاء
عند طرف القارب وسمعته يقول :

— ألا تمد لنا يد المساعدة أيها الأحصق بدلا من
الوقوف هكذا غارقا فى احلامك . متى يمكنك أن تدرك
أننا نكاد نموت مخنوقين ومحاصرين فى هذا الغطاء .

وبما أنى لم أ تأخر أبدا عن نجدة منهوف يستنجد
بى ، فقد أسرعت وخلصتهما من الغطاء . ويبدو أنى
وصلت فى الوقت المناسب تماما ، لأن هاريس كان قد
بدأ يذرق !

وبعد كل هذا ، استغرق الأمر منا أكثر من نصف
ساعة أخرى من العمل الشاق حتى أصبح الغطاء فى
مكانه الصحيح . ثم نظفنا المكان وأعدنا طعام
العشاء ، فوضعنا الغلاية على الموقد عند مقدمة القارب
وذهبنا لنجلس عند ذيله ، فهذه هى الطريقة المثلى لكى

تجعل الغلاية تعمل ، لأنها لو أحسست أنك ترقبها انتظارا
لأن يغلى ما بها لن تفعل أبدا . . . إذن عليك أن تذهب
بعيدا وتأخذ في تناول طعامك وكأنك لن تتناول شايًا
يصنع بالغلاية بالمرّة ، وعليك ألا تراقبها أو حتى تدير
عينك ناحيتها . وهكذا سرعان ما تستسمعها تصفر في
اشتياق مجنون لأن يصبح ماؤها الذي يغلى شايًا . . .

وقد استعملنا هذه الطريقة فكانت النتيجة جيدة .
وفي الوقت المضبوط كان كل شيء معدا ثم أوقدنا
المصباح وجلسنا للعشاء . . . كم كنا في حاجة لهذا
العشاء !

وطوال خمس وثلاثين دقيقة ، لم يكن هناك صوت
إلا صوت السكاكين والشوك وصوت أسناننا وهي
تطحن الطعام . وأخيرا قال هاريس :

— آه !!

ثم أخرج قدمه اليسرى من تحته ووضع بدلا عنها
قدمه اليمنى ، وبعدها بخمس دقائق قال جورج :

— آه !!

وألقي بصحته فوق ضفة النهر ، ثم وبعد ثلاث دقائق أخرى أظهر مونتمورينسى أول علامة من علامات الرضاء منذ بدأنا الرحلة • ثم قلت أنا :

— أه !!

وارتعيت على ظهري !!

إن المرء ليأخذه العجب من سيطرة المعدة على الإنسان • أننا لانستطيع أن نعمل أو نفكر إلا اذا سمحت لنا معدتنا بذلك ، أننا عبيد بطوننا ، واذا نحن نظرنا اليها بعين العناية فسيكون النشاط والحيوية والرضا نصيب قلوبنا •

فقبل العشاء كنا جميعا — جورج وهاريس وأنا — حادى المطباع تغلب علينا الطبيعة البرية الشرسة • وبعد العشاء أصبحنا فى غاية الوداعة نتصامر ويبتسم كل منا فى وجه أخيه بل وابتسمنا حتى فى وجه الكلب • انتابنا شعور بالحب لبعضنا البعض ، بل الحب لكل البشر ••

فمثلاً ، ذهس هاريس قدم جورج أثناء حركته ،
وبدلاً من أن يقول بصوت كريحه « أن المرء لا يد أن
يتعثر بجزء من قدم جورج أينما تحرك في دائرة قطرها
عشر ياردات من المكان الذي يجلس فيه » قال بصوت
رقيق :

— أوه ، اننى أسف يا صديقى القديم ، أرجو ألا
أكون قد سببت لك أى ألم !

ورد عليه جورج بصوت أرق :

— لا ، على الإطلاق ، المغلطة كانت غلطتى أنا ؛
ورد هاريس :

— لا ، انها غلطتى أنا بالتأكيد .

وكم يكون جميلاً ومؤثراً أن تستمع لهذه المحادثة
بينهما !

بعد العشاء ، أشعل كل منا غليونيه وجلسنا في
استرخاء نرقب الليل الساكن وننتحدث ثم خلدنا للنوم
في العاشرة مساءً ، وكنت أعتقد أنى سأنام جيداً بعد

عناء هذا اليوم الطويل • ولكن للأسف لم يحدث ، فقد غفوت لمويعات ثم أخذ شيء ما - نبت فجأة في القارب لأنه لم يكن موجودا عندما بدأنا ، كما أنه اختفى في صباح اليوم التالي - أخذ هذا الشيء يدفعني في ظهري وقد نمت برغمة لبعض الوقت وحلمت بأنني قد ابتلعت عملة ذهبية ، وأنهم كانوا يحاولون فتح ثقب في ظهري لاستخراجها ، وقد فكرت أن هذا تصرف غير كريم منهم ، وقلت لهم سأعطيهم ما يعادل هذه العملة من النقود ولكنهم لم يسمعوا لي واستمروا في عملهم بخشونة وقسوة حتى استيقظت ••

وبدا لي جو القارب خانقا وكان رأسي قد انكسر •• ففكرت أنه يحسن بي أن انزل المشاطيء لأتنفس هواء الليل البارد ، فارتديت أي ملابس وجدتها كيما اتفق ، بعضها تخصصني وبعضها تخص اما هاريس أو جورج وتسليت من تحت الغطاء ونزلت الى الشاطئ ••

كانت ليلة رائعة غاب فيها القمر وترك الأرض وحدها مع نجوم السماء • ليلة تملؤها الرغاية

والحيوية جعلت احساسى الضئيل بالحزن يزحف
مفسحبا غي خجل.. ليلة حانية مسحت بيدها الرقيقة على
راسى المسكين قصرت بعد قليل قادرا أن أعود للقارب
فى سلام وأسافر فى أحلام النوم الهادئ.

الفصل التاسع

الصباح التالي

صحت في السادسة صباحا لأجد جورج قد استيقظ هو الآخر . وأخذنا - كلانا - نتقلب في الفراش استجداء لمزيد من النوم . ولكن دون فائدة . . لم يكن هناك أى مبرر لاستحالة الاستمرار في النوم هكذا . بل لقد كان من الأحرى بناولنا أن نسقط في نوم عميق حتى العاشرة صباحا على الأقل . فالاستيقاظ الآن في هذا الوقت المبكر دون داع لذلك يعد ضربا من الحماسة .

وقد أخبرنى جورج أن نفس هذا الموقف - وربما أسوأ منه - قد حدث له منذ عام ونصف تقريبا . .

عندما كان يعيش بمفرده لدى مسز « جينجز » . فقد حدث أن تعطلت ساعته ذات ليلة وتوقفت عند الثامنة والرابع ، ولم يعرف بهذا في وقته لسبب أو لآخر ، ربما لم يملأها قبل أن ينام وعلقها فوق وسادته دون أن يلقى عليها ولو نظرة عابرة .

كان الوقت شتاء ، والنهار قصيرا جدا . وقد مر بلندن أسبوع ذو طقس مشبع بالضباب لهذا فلم يكن الظلام الذى كان يلف الدنيا - عندما استيقظ جورج من نومه هذا الصباح - يعنى أى شىء ولم يكن يشير الى الوقت بأى مؤشر . ولهذا فقد رفع جورج يده وأخذ ساعته ونظر فيها فوجد عقاربها تشير الى الثامنة والرابع ا

فصاح جورج هزعا :

- يا للسماء ! اننى يجب أن أكون بالمدينة عند حلول القاسمة تماما . لماذا لم يوقظنى أحد ؟ أوه ، يا للعار !

ثم ألقى بالساعة جانبا وانتفض ناهضا من الفراش وأخذ حماما باردا وحلق ذقنه بالماء البارد فلم يكن ثمة

وقت لانتظار الماء الساخن . وارتدى ثيابه بسرعة وألقى نظرة أخرى على الساعة التي كانت - ونتيجة للصدمة التي تلقتها عندما رمى بها جانبا - قد بدأت تتحرك فوحد عقاربها تشير الى التاسعة الا الثلث

أخذ جورج ساعته وأسرع هابطا . وفى غرفة الجلوس وجد أن كل شيء هادئ ومظلم . . فلا نار فى المدفأة ولا افطار معد على المائدة . حتى قال فى نفسه : يا للعار . . ثم قرر ان يواجه السيدة . . جى . بحقيقة رأيه فيها عندما يعود فى المساء . . ثم وبسرعة ارتدى معطفه وأخذ قبعته واختطف مظلته واندفع الى باب الخروج . . كان الباب لايزال مغلقا بالمزلاج فأخذ جورج يسب مسر . . جى . ويصفها بأنها امرأة عجوز كسولة بينما كان يفتح الباب ويعدو خارجا . .

وأخذ يعدو بقوة حتى قطع مسافة تقرب من ربع الميل . وقد أدهشه أن يجد الشوارع خالية الا من بضعة أناس يسирون فرادى هنا وهناك . كما أن كل المحلات كانت مغلقة . . صحيح أن هذا الصباح كان صباحا دافئا ولكن ليس من الطبيعى أن تتوقف هكذا كل الأعمال

ويمكث الناس على أسرتهم تحت أغطيتهم لجسرد أن
الصباح فى لندن يلفه الضباب . .

أخيرا وصل الى هولبورن . ووجد كل الدكاكين
مغلقة ولم يظهر أتوبيس واحد فى الأفق . . فقط كان
هناك ثلاثة رجال . واحد منهم كان الشرطى ورجل
فى عربة مملوءة بالخضراوات ، وعربة أخرى قديمة . .
أخرج جورج ساعته ونظر فيها فوجد لها تشير الى
التاسعة الا خمس دقائق فتوقف مكانه وأمسك برسغه
وأخذ يعد نبضات قلبه ثم انحنى وأخذ يتحسس رجله .
ثم - وهو لا يزال ممسكا بساعته - توجه الى الشرطى
وسأله عما اذا كان يعرف كم تكون الساعة الآن .

ولكن الشرطى نظر اليه فى ارتياب وقال له :

- كم الساعة ؟ لو أنك أصغيت لسمعت دقائقها .
وبالفعل أصغى جورج فسمع ساعة مجاورة تدق
ثلاث دقائق فقال جورج غاضبا ومندمعا :

- ولكنها لم تدق سوى ثلاث دقائق فقط !

- حسن ، وكم تحبها أن تدق اذن ؟

- انها يجب أن تدق تسع دقائق !

قالها جورج وهو يشير الى ساعته . فسأله الشرطى
فى حدة :

- يا هذا .. هل تعرف عنوان بيتك ؟

وبالطبع كان جورج يعرف عنوان بيته بل وأعطى
العنوان للشرطى الذى قال :

- اد .. حسن اذن ، استمع الى نصيحتى وعد
لبيتك بهدوء وخذ ساعتك هذه معك وحبذا لو أرحقنا منها
الى الأبد .

وفى البداية وفور عودته للبيت قرر جورج أن
يخلع ملابسه ويعود للفراش لينام ثانية ولكنه عندما
فكر فى أنه سيكون عليه أن يرتدى ملابسه ثانية ويأخذ
حماما آخر قرر الا يخلع ملابسه وان يذهب لينام على
كرسى وثير .

الا أنه لم يستطع النوم ، فقد كان متيقظا جدا ،
بل أنه لم يشعر فى حياته أنه أكثر يقظة من الآن . لهذا

أضياء المصباح وأخرج بعض أوراق اللعب وأخذ يلعب نفسه ولكن هذا لم يرضه أيضا فألقى عن اللعب واستبدل به القراءة ، ولكنه لم يجد في نفسه أية رغبة في القراءة فارتدى معطفه ثانية وأخرج ليتمشى قليلا .

كان الطريق موحشا ومخيفا ، وكان كل من يصادفه من رجال الشرطة ينظر اليه في ريبة وشك .. وكانوا يضيئون مصابيحهم في وجهه ، بل ويسرون وراءه . مما جعله يشعر بأنه مثل من ارتكب جريمة ومطلوب من قبل العدالة فأخذ يتسلل هاربا الى الشوارع الجانبية ليختبئ خلف أى باب يقابله اذا ما سمع وقع اقدام شرطى يقترب منه ..

وطببعي ان هذا التصرف وحده كان كفيلا ان يثير شكوك الشرطة اكثر من أى شيء آخر فكانوا يحذرونه من خلف الأبواب التى يختبئ وراءها ويوجهون اليه الأسئلة العنيفة عما كان يفعله في هذا المكان ، وعندما كان يجيب بـ : لا شيء ، ويقول انه قد خرج فقط ليتمشى ، قليلا ، كانت الساعة الرابعة صباحا ، فكانوا ينظرون



جورج يخفي من رجل الشرطة :

اليه غير مصدقين ، بل ان شرطيين اصطحباه الى عنوان بيته ليتأكدا اذا كان حقا يسكن في هذا البيت أم انه يدعى ، ومكثا حتى فتح الباب بمفتاحه ووقفوا امام البيت يرقبانه .

عندما دخل جورج الى بيته فكر في ان يشعل النار ويعد طعام الافطار لنفسه ، فقط ليستهلك بعض الوقت . . . ولكن بدا عليه انه غير قادر على عمل أى شىء ، فعليه ان يخطو فوق دلو الفحم حاملا ملعقة الشاي دون ان يقع في الدلو او يقع هو فوقه فيحدث ضجة توقظ السيدة (جى) فتظن ان هناك لصا بالبيت فتصرخ من النافذة تنادى على رجال الشرطة فيندفع الشرطيان الواقفان بالباب الى الداخل ويقبضان عليه ويسوقانه الى المحكمة .

كان جورج قد أصبح في حالة عصبية يرثى لها واخذ يتخيل المحاكمة ومحاولاته المستميتة في شرح الحقائق للقاضى . وبالطبع لن يصدقه أحد وسيحكمون عليه بالسجن عشرين عاما وستموت أمه حسرة عليه . وبعد كل هذه الأفكار السوداء ألق جورج عن فكرة

اعداد طعام الافطار ولف نفسه فى معطفه وجلس على
المقعد ذى الذراعين حتى نزلت السيدة (جى) فى الساعة
والنصف . وامتد هذا التاريخ اقسام الا يصحون من
نومه مبكرا فقد كان عاحدث بمثابة تحذير له .

كنا نجلس ملفوفين فى اغطيتنا بينما كان جورج
يروى قصته هذه . وبعد أن انتهى وكزت هاريس بالمجذاف
لكى أوقفه . وقد استغرقت عملية ايقاظه وقتا طويلا
ولكنه أخيرا استوى جالسا فجأة مرسلًا مونتمورينسى
الذى كان ينام على صدره الى آخر القارب .

بعد هذا رفعنا الغطاء ووضعنا رؤوسنا على
جوانب القارب ونظرنا الى الماء - نحن الأربعة -
فارتعدت أوصالنا . فبالأمس اتفقنا على أن نصبح
مبكرين ونقذف بالأغطية ثم نلقى بأنفسنا فى أحضان
الماء مصحوبين بصيحات السعادة . ونستمتع بسياحة
طويلة منعشة . الا أننا ولسبب ما عندما جاء الصباح ،
بدت لنا هذه الفكرة أقل جاذبية فإلما كان يبدو مظلم
وباردا والرياح حولنا تجمد النخاع فى العظام !

وأخيرا قال هاريس .

— حسن من سيكون أول القافزين الى الماء ؟

وبالطبع لم يكن ثمة تسابق لنيل هذا الشرف ، بل ان جورج قد أعلن عن نياته عندما ارتد حالسا وارتدى جوربه ونبح مونت مورينسى تباحا باثسا وكان فكوره السباحة في الماء البارد — مجرد الفكرة — قد سببت له ألما عظيما . وقال هاريس أنه سيكون من الصعب ان يجد سرواله بعد أن يعود الى القارب .

ولما لم يكن من طبعى الاستسلام ، ولأنى لم أستطع تقبل فكرة الغطس فقد قررت أن أنزل الى ضفة النهر وأثر الماء على جسمى . فأخذت منشفة معى وأخذت أزحف على حزق شجرة متدلى نحو الماء . كان البرد قارصا والرياح الثلجية تقطع فى جسدى كالسكين ففكرت فى العودة دون أن أضع قطرة ماء على جسمى أرجع للقارب وارتدى ملابسى فى الحال . . هذا الفضل . ولكن وبينما أنا استدير عائدا اذا بالفرع القبي يتكسر فأسقط أنا ومنشفتى فى الماء محدثا جلبة شديدة مثيرا

ناثورة من الماء الى اعلى ، وهكذا وفجأة وقبل أن أدرك ما حدث كنت فى قلب التيار وجسدى يتعامل مع مياه نهر التيمس . . وبينما أنا أجاهد الماء سمعت هاريس يقول :

– يا الهى لقد فعلها هذا العجوز . . لم أكن أتصور أن لديه الشجاعة الكافية ليفعل هذا ، أكنت تتصور هذا يا جورج ؟

وصاح جورج موجهها كلامه لى :

– هل أنت بخير ؟ أكل شئ على مايرام ؟

– بل ممتع ، انكم حمقى فعلا لأنكم لم تنزلوا معى الى الماء . . اننى لم أكن لأضيع هذه الفرصة بأية حال من الأحوال . لماذا لاتحاولون ، ان كل ماتحتاجونه هو قدر ضئيل من العزيمة .

ولكن – وبرغم كل تلك الكلمات المشجعة لم أستطع ان أقتنعهم بالاقدام على النزول الى الماء .

بعد هذا وبينما كنا جميعا نرتدى ثيابنا هذا الصباح حدث شئ مضحك . فقد كنت أشعر ببرد شديد حينما

عدت للقارب - بعد سباحتي الاجباريه - ونتيجة
لارتعاشي واستعجالي انزلق قميصي من يدي وسقط
في الماء فجبن جنوني في الوقت الذي انفجر فيه جورج
ضاحكا . ولم اجد سببا واحدا لهذا الضحك . وقلت
لجورج ان قهقهته هذه ليس لها مبرر . ولكنه لم يرد
الا ان تعادى في ضحكاته الهستيرية . . انتسى لم
اصادف في حياتي رجلا يضحك كثيرا بسبب وبدون
سبب كجورج ، وقد صارحته برأى فيه فقلت له انه رجل
أحمق بلا عقل ، ولكن هذا لم يروعه واستمر يقهقه .

وبينما أنا أنتشل القميص من الماء اكتشفت أنه ليس
قميصي بل . . قميص جورج ! فقد كنت أحاول ارتداء
قميص جورج ظنا مني أنه قميصي نتيجة استعجالي .
وهكذا بدت لي طرافة الموقف لأول مرة فأخذت أضحك
وكلما نقلت بصري بين وجه جورج الضاحك وقميصه
الذي يقطر ماء ازداد اغراقا في الضحك ، حتى سقط
مني القميص في الماء ثانية ، فقال لي جورج من خلال
قهقهته :

الن . ها . ها . . الن تخرجه من الماء ؟

ولم أستطع أن أجيبه على سؤاله في الحال لأنني
لم أكن أستطيع إمساك نفسي عن الضحك وأخيرا
استطعت أن أقول له من خلال ضحكاتي :

— انه ليس قميصي .. بل — بل هو قميصك أنت .
ها .. ها .. ها .. !!

ولم أر في حياتي وجه انسان يتحول من الضحك
الى الغضب بمثل هذه السرعة فقد صرخ جورج :

— ماذا ؟ أيها الحمار الغبي ! لماذا لاتستطيع أن
تكون أكثر عناية بالأشياء ؟ لماذا لم تأخذ ملابسك وتذهب
لمرتديها على الأرض ؟ أنت لست أهلا لتبقى على ظهر
قارب .

حاولت أن أجعل جورج يرى مدى طرافة الموقف .
لكنه لم يستطع فجورج يصبح أحيانا رجلا لا يقدر على
فهم الدعابة وتقبلها .

اقترح هاريس أن نقلى بعض البيض للافطار .
وتطوع للقيام بذلك .. فمن وجهة نظره أنه كان يجيد

قلى البيض . وهو يقوم عادة بهذا العمل عندما يبهر
مع أصدقائه لدرجة أنه أصبح مشهورا به . ان من يتذوق
- حسب كلامه - بيضه المقلى ولو مرة يصير لايشتهى
أى لون آخر من ألوان الطعام ، بل قد يعاف كل شيء
ويظل ينحف وينحف حتى يكاد يموت ان لم يأكل ثانية
من بيض هاريس المقلى .

وجعلتنا قصص هاريس عن البيض المقلى نشعر
بالجوع فعلا ، فأعطيناه الموقد والمقلاة وما تبقى من
البيض ، الذى تكسر معظمه ولوث بقية الأشياء التى
فى السلة ، ثم تضرعنا الى هاريس أن يكف عن الكلام
ويبدأ فى قلى البيض . . وقد واجه بعض الصعوبة
فى تكسير البيض ، فى الحقيقة ليس فى تكسيـره
بالتحديد ، ولكن فى تكسيـره دون أن يلوث سرواله وفى
وضعه داخل المقلاة بالضبط . أخير استطاع أن يضع
ست بيضات فى المقلاة وجلس بجوار الموقد يقلبها
بالشوكة .

وقد بدأ عمله متعبا - على حسب تصورى أنا

وجورج - فقد أحرق هاريس نفسه عندما اقترب من
المقلاة وهي على الموقد ، فألقى بكل شيء في يده وأخذ
يرقص حول الموقد وهو يهز أصابعه في الهواء ويصرخ
وكنا كلما نظرنا ناحيته نجده يفعل نفس الشيء فظننا
أن هذا طقس من طقوس قلى البيض التى تعلمها
هاريس .

فلم نكن ندري بالضبط أى نوع من البيض المقلى
يصنع هاريس ، وقد خمننا أنه ربما يكون طبقا من
أطباق الهنود الحمر ويستدعى صنعه نوعا معينا من
الرقص بالاضافة الى بعض الكلمات السخزية حتى
يطهى جيدا . وبدا الأمر كله من أكثر الأمور إثارة ،
وقد حزنا - أنا وجورج - كثيرا حينما انتهى هاريس
من صنعه أخيرا . .

ولكن لم تكلل - على ما يبدو - جهود هاريس
بالنجاح الذى كان يتوقعه . فقد كان النجاح بنسبة
ضعيفة اذا قورن بالجهود الشاقة التى بذلها هاريس ،
فقد وضع ست بيضات فى المقلاة وكان كل ماخرج لنا
هو مقدار ملعقة من خليط محروق . .

قال هاريس أن الخطأ كان خطأ المقلادة وأن الطبق كان سيخرج أفضل من هذا بكثير لو أننا أحضرنا معنا مقلادة من نوع معين وموقد غاز . ولهذا قررنا ألا نحاول صنع هذا الطبق ثانية حتى نحضر هذه التجهيزات التي طلبها هاريس . .

وبعد انتهائنا من تناول الإفطار ، كانت الشمس قد ازدادت سطوعا وهبطت حدة الرياح وصار الطقس كابدع ما يمتنى الإنسان . .

كان كل ما حولنا يذكرنا بالقرن الثالث عشر . وبينما كانت ابصارنا ترى النهر خلال أشعة الشمس الذهبية تخيلنا وكأن القرون قد انطوت حتى عادت بنا الى ذلك الصباح الخالد من شهر يونيو عام ١٢١٥ . وتخيلنا أننا أبناء فلاحين انجليز نرتدى ثيابا من الغزل الوطني اليدوي ونقف هناك لنكون من شهود كتابة هذه الصفحة المجيدة من التاريخ ، عندما أجبر الملك « جون » على التوقيع على « الماچنا كارتا » أو « اللوحة العظيمة » التي صارت حجر الزاوية في معبد الحرية في انجلترا

وأخذت أتخيل المنظر في هذا اليوم العظيم وما حدث
ساعة بساعة ، فعند المرسى الذى يمتد بطول الشاطئ
من « ستيفز » . . كانت تسير مجموعات من رجال
الجيش ممثلة حتى آخر ما يستطيع البصر أن يمتد . .
وكان الطريق يبدو سميكاً مزدحماً بالصلب اللامع
والخيل المطهمة . وكان صياح الفرسان يعلو من
مجموعة الى أخرى والأعلام الصغيرة تتماوج في الهواء
بكسل . ومن وقت لآخر يحدث اضطراب أعظم في
الصفوف عندما تتحرك الجموع لتفسح الطريق ليمر
أحد السادة العظام فوق جواد الحرب محفوفا بحرسه
من الفرسان فيتقدم ويأخذ مكانه على رأس رجاله .

أما فوق التل وفي المواجهة تماماً ، كانت تقف
جموع القرويين المبهورون وأهل المدينة الفضوليون .
وكل فرد لديه قصة يرويها عن الحدث الذى جاء خصيصاً
لمشاهدته . البعض يقول أن خيراً عظيماً سيعم البلاد
من جراء ما سيحدث الليلة ، بينما يهز بعض الرجال
المسنين رؤوسهم غير مصدقين فيأطالوا سمعوا مثل هذه
الحكايات من قبل دون تغيير حقيقى .

كان النهر كله حتى بلدة « ستينز » مبرقشا بالقوارب المتناثرة ، تتزاحم حتى أن بعض القوارب جرّوت على الاقتراب من البارجة التي ستقل الملك جون شخصيا الى المكان الذي تنتظر فيه اللوحسة الكبرى توقيعه الخالد .

وعند الظهر ، عند بداية المرسى ، تبدأ سحابة ترابية صغيرة تتصاعد ثم تكبر وتقترب أكثر فأكثر ويعلو صوت الجلبة التي تثيرها الخيل . . . يعلو ويعلو . ومن هنا وهناك تبرز مظاهرة رائعة من الفرسان والسادة المعظام يتزيون بأزياء ذات ألوان زاهية مبهجة . بينما فى الخلف وفى الأمام وعلى الجوانب ، كان يقف أبائنا صانعين عمرا للسادة وفرسانهم ، وفى وسط الجميع كان الملك جون .

كان الملك يمتطى صهوة جواده متوجها الى حيث تقبع البارجة الملكية على أهبة الاستعداد ، بينما توجه السادة الكبار لاستقباله . فحياهم يابتسامة ثم ضحكة وبضع كلمات المجاملة ، وكانما هو مدعو لحفل أو لعيد أقيم على شرفه . ولكن ما أن استقر بفرسه حتى

مرق بسرعة ودار خلف فرسانه الفرنسيين يحتمى بهم
ويوجههم في اتجاه الصفوف المجيدة التي يقف فيها
السادة العظام الذين أحاطوا به . .

ولكن الوقت كان قد فات لمثل هذا ، وفجأة انطلق
نفير رهيب من أحد الفرسان في جانب الملك أعقبه صيحة
على جنوده والفرنسيين ثم هجمه شراسة على صفوف
السادة العظام غير المستعدين لمثل هذه الحركة . وربما
شعر هؤلاء اللوردات بالأسف لأنهم عارضوا خطة
الملك وربما كان سيكتب لكأس الحرية أن ينكسر وهو على
شفتي انجلترا ويبقى لها - لانجلترا - مذاق الحرية
على شفتيها مئات السنين

ولكن قلب الملك جون انهار وارتجف أمام وجوه
الجنود الانجليز القاسية . وتقهقر جيش الملك عائدا إلى
مكانه . . أما الملك فقد نزل عن صهوة جواده واتخذ له
مقعدا على البارجة الملكية بينما كان السادة يتبعونه
وأيديهم فوق سيوفهم . ثم أعطى الأمر للقافلة بالتحرك .
وببطء شديد أخذت الجوارح الثقيلة تغادر شواطئ

« رانيمير » . . وأخذت تسير حثيثا ضد التيار حتى وصلت الى ضفاف الجزيرة الصغيرة التي حملت ومنذ ذلك الوقت اسمها الشهير (الماجنا كارتا) حيث نزل الملك جون من بارجته وتوجه الى اللوحة العظيمة ينما كان الناس يقفون حائسي الأنفاس في ترقب مهيب، الى أن شقت عنان السماء صيحة عظيمة تعلن عن وضع حجر الأساس في بناء الحرية في انجلترا . . !

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

القصل العاشر

مغامرات مع قارب وعلبة من الصفيح

بينما أنا جالس على ضفة النهر سابحا فى خيالاتى مع هذا المشهد العظيم ، اذا بجورج ينادينى قائلا بسخرية انى اذا كنت قد اخذت وافرا من الراحة ، فبالتاكيد لن امانع فى أن اعاون فى عملية الغسيل .. وهكذا وبما انى قد انتزعت بهذه الطريقة من ذكريات الماضى المجيد الى واقع الحياة العادية ، فقد انزلت الى القارب واخذت أنظف المقلاة بواسطة عصا وحفنة من الأعشاب البحرية ثم مسحتها بقميص جورج المبلول

بعد هذا ذهبنا الى جزيرة (عاجنا كارتا) والقينا
نظرة على الحجر الذى ينتصب داخل كوخ هناك والذى
يقال أن الوثيقة العظيمة قد وقعت عليه . ثم عدنا الى
القارب وبدأنا الاستعداد لاستكمال رحلتنا .

كانت المسافة من الجزيرة الى هويس « وندسور »
القديم منطقة جميلة من النهر . . فالطريق يمتد ظليلا مع
ضفة النهر وقد تناثرت عليها هنا وهناك أكواخ صغيرة
جميلة . . ان « وندسور القديمة » تعتبر مكانا شهيرا .
فقد امتلك الملك « ادوارد المعترف » - المتوفى سنة
١٠٦٦ - قصرا فى هذا المكان . . وهنا أيضا ثبت أن
« ايرل جودوين » كان مذنباً فيما نسبته اليه محكمة
هذا العصر من تهمة قتل شقيق الملك . فقد وقف « ايرل
جودوين » ممسكا بقطعة كبيرة من الخبز فى يده قائلاً
أنه اذا كان حقا مذنباً فإن قطعة الخبز هذه ستلتصق
بحلقه وتقتله . وبالفعل وضعها فى فمه وحاول أن يبتلعها
ولكنها علقت بحلقه وأغلقت فمات مختنقا . .

بعد أن تجاوزنا (وندسور القديمة) أصبح النهر

معملا الى حد ما . ولهذا جددنا بالقارب ، انا وجورج ،
حتى وصلنا الى جزيرة (مونكى) او جزيرة القرد .
حيث توقفنا لتناول الغداء . وقد قررنا ان نتناول لحم
البقر البارد ، ثم اكتشفنا اننا لم نحضر المستردة .
ولا اعتقد انى قد شعرت برغبة فى تناول المستردة مثلما
شعرت فى ذلك اليوم . اننى لا اهتم - عادة - بوجود
المستردة ، بل انى قد توقفت عن اكلها تماما منذ فترة .
ولكنى كنت على استعداد لأن ادفع (أى شيء) مقابل
بعض المستردة فى ذلك اليوم !

وقال هاريس هو الآخر انه على استعداد لأن يدفع
(أى شيء) مقابل بعض المستردة وكذا قال جورج .
أوه . . انه ليكون يوم السعد لأى انسان يتصادف مروره
بنا وهو يحمل بعض المستردة فقد كان سينال من (أى
شيء) مايكفيه العمر كله .

شعرنا بتعاسة شديدة لعدم وجود مستردة ، فأكلنا
اللحم البقرى فى صمت حزين . بينما بدت لنا الحياة
عبثية خالية من المتعة . واخذنا نتذكر أيام الطفولة
السعيدة ونتحسر . ولكن حالنا انقلبت الى السرور

عندما أخرج جورج علبة فاكهة من قاع السلة ، فقد كنا جميعا نحب الفاكهة المحفوظة ونظرنا الى الصورة المطبوعة على العلبة ثم نظر كل منا للآخر في سعادة بينما جهر هاريس ملعقته .

ثم بدأنا البحث عن فتاحة العلب ، فأخرجنا كل شيء كان في السلة . ثم كل شيء كان في الحقيبة بل لقد انتزعنا ألواح قاع المركب ثم حملنا كل شيء الى ضفة النهر وأخذنا نهزه بعنف علنا نجدها ولكننا لم نعثر على فتاحة العلب . .

بعد هذا حاول هاريس أن يفتح العلبة بمطواة الجيب فكسر المطواة وجرح نفسه . . ثم حاول جورج فتح العلبة بواسطة المقص ولكن المقص طار عن يده وكاد أن يخرق عينيه ، وبينما جلسا يداويان جرحهما كنت أنا أحاول أن أصنع ثقباً في العلبة بواسطة الطرف المديب لخطاف القارب ولكن الخطاف انزلق في الوحل فيما بين القارب وضفة النهر ، بينما خرجت العلبة - دون أن تصاب بأي شيء - وكسرت قدح الشاي .

وجن جنوئنا من الغضب فذهب هاريس الى حقل

مجاور وأحضر حجرا حادا وذهبت أنا الى القارب
وأحضرت مجدافا . وأمسك جورج بالعلبة ووضع هاريس
الطرف الحاد من الحجر على قمة العلبة بينما رفعت أنا
المجداف عاليا في الهواء واستجمعت كل قوتي وهويت
بالمجداف فوق العلبة .

كانت قبعة جورج المصنوعة من القش هي التي
أنقذت حياته في ذلك اليوم . انه يحتفظ بهذه القبعة حتى
الآن . او لنقل ما تبقى منها - وهي أمسيات الشتاء
وحول نيران المدفأة يريها لأصدقائه ويحكى لهم القصة
مع بعض اللمسات الخيالية الجديدة في كل مرة .

بعد هذا وبينما عاد هاريس ببروح عميق في اللحم .
أخذت أنا العلبة وأخذت أطرقها بالمجداف حتى نالني
التعب والاحباط . ثم انضم الى هاريس وطرقناها حتى
صارت مسطحة ثم طرقناها حتى صارت مربعة ، وطرقناها
حتى اكتسبناها كل شكل ممكن . لكننا لم نستطع
ان نفتح ولو ثقباً واحداً فيها . ثم أخذها جورج وصار
يطرقها حتى اكتسبت شكلا غريباً ومخيفاً مما جعل

جورج يلقي بالمجداف بعيدا .. وبعد هذا جلسنا حولها
- نحن الثلاثة - نحدق فيها !

كان هناك تجويف كبير عند قمة العلية اتخذ شكل
ابتسامة ساخرة .. وقد أثارت هذه الابتسامة غضبنا
أكثر من أى وقت مضى . فأمسك بها هاريس وألقى بها
كل قوته بعيدا الى منتصف مجرى النهر وبينما كانت
تفوص فى الماء كنا نحن نصب عليها لعناتنا .. ثم
عدنا الى القارب وأخذنا نجذف بلا توقف حتى بلغنا بلدة
ميدنهيد . .. أى رأس العذراء ..

جاورنا (ميدنهيد) ، ثم سرنا ببطء أكثر خلال
المنظر الخلابة التى صادفتنا فى منطقة ميدنهيد .
وما أن تناولنا الشاي حتى أحسبنا بريح قوية تدفعنا
للأمام وكان هذا مفاجئا لنا . فعادة ماتكون الريح
معاكسة لك أينما توجهت على صفحة النهر . انها تبدأ
ضدك عندما تبدأ أنت التجديف فى الصباح وتظل تفكر
فى رحلة العودة وكيف ستكون سهلة وأنت تفرد شراعك
ليستقبل الريح .. ولكن وبعد نهاية اليوم تتغير الرياح



محاولة فتح العلبة الصفيح !

فيصير ضدك أيضا فى رحلة العودة ويكون عليك أن
تجذف بقوة ضد الريح وضد التيار معا .

ولكن فى هذا المساء بالتحديد ، يبدو أنه حدث خطأ
ما فاستدارت الرياح تدفعنا من الخلف بدلا من أن تواجهنا
ففردنا شراع قاربنا قاعثلا بالهواء واندفع القارب على
صفحة الماء .

وكنتم أقوم بتوجيه الدفة . . .

ليس هناك أجمل من أن تقلع بشراع تملأه الريح .
ان أجنحتها المندفعة ستبدو كأنها تحملك معها . حتى
تصبح جزءا من الطبيعة . بينما يغنى الهواء لك
والأرض تبدو بعيدة وصغيرة والسحب القريبة من رأسك
تبدو كأنها أخوة وأنت تفتح ذراعيك لتحتويها .

كنا وحدنا على صفحة النهر فيما عدا - وعلى مسافة
بعيدة - قارب صيد بدا لنا فى الأفق وهو يقف وحيدا
وسط المجرى المائى وعليه ثلاثة صيادين . . وأبحرنا
بسرعة ونعومة مجاوزين الضفاف ذات الأشجار وقد
خيم علينا الصمت .

وكننت أقوم بتوجيه الدفة ..

وعندما اقتربنا من الصيادين الثلاثة تبين لنا أنهم
كبار فى السن وعليهم وقار وهدوء . وكانوا يجلسون فى
قاربهم ينظرون الى شباكهم بانتباه . كانت الشمس
الغاربة الحمراء تلقى بأضواء سحرية على الماء ،
وتلمس نيرانها أطراف الأشجار العالية ، وتصـبـغ
السحب بلون ذهبى مجيد . . كانت لحظة من لحظات
الجمال العميق فى الكون . وكنا كفرسان الحكايات
القديمة نبحر عبر بحيرة غامضة فى مملكة الغروب
المجهولة . . !

اننا لم نذهب فى الحقيقة الى مملكة الغروب ولكننا
كنا نسير فى خط مستقيم فى اتجاه الصيادين الثلاثة
ولم ندرك ماذا حدث فى البداية لأن الشراع أغلق
المشهد . ولكننا ومن صرخات الغضب التى حملها الهواء
الينا أدركنا أننا صرنا بالقرب من كائنات بشرية وأنهم
ربما شعروا بالضجر والضيق بسببنا .

أنزل هاريس الشراع ورأينا ما حدث . فقد ارتطمنا

بالرجال الثلاثة والقينا بهم في قاع القارب .. وكانوا الآن يحاولون الخلاص باقدامهم وهم يزيحون السمك عن اجسامهم واثناء هذا كان يصبون علينا لعناتهم وسبابهم .

فقال لهم هاريس انه كان يجب عليهم ان يكونوا شاكرين لنا لاضافة شيء من الاثارة لعملهم .. ثم انه - اى هاريس - قد أصابه الحزن من جراء رؤيته لرجال في مثل سنهم ووقارهم يخرجون عن وقارهم بهذه الطريقة . ولكن كلامه هذا لم يخفف من اثر فعلتنا ..

قال جورج انه سيتولى الدفة بعد هذا . وأضاف ان عقلا كمعقلى لا يصلح لتولى توجيه القارب .. وانه يجب ان اترك انسانا اكثر طبيعية وواقعية يتولى امر القارب قبل ان نغرق جميعا . ثم اخذ الدفة وقادنا الى مدينة (مارلو) وهناك تركنا القارب ونزلنا الى البر لنقضس ليلتنا في فندق صغير ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الفصل الحادى عشر

• • مونتموريثسى

تعتبر مدينة « مارلو » من أكثر المراكز النهرية التى عرفت بها • فهى مدينة أعمال تعج بالحياة وهى وان لم تكن مدينة بديعة - أجالا - الا ان بها العديد من الأماكن التى تتميز بطابعها القديم • كما أنها محاطة بالحقول الجميلة والمروج الخضراء الفسيحة ، حيث يمكنك التريض على قدميك بعد إبحار طويل بالقارب • هذا بالإضافة الى أن النهر ذاته رائع الجمال فى تلك البقعة • •

ويمكننا أن نرى - الى أعلى قليلا فى النهر - آثار

دير « ميدينهام » ، وهو البيت الدينى للاخوة البندكتيون
ابان القرن الثالث عشر . والاخوة البندكتيون هم رهبان
كانوا يلبسون الثياب الخشنة ولا يقربون اللحم أو
السّمك أو البيض فى طعامهم ، وينامون على القش .
وكانوا يقومون للصلاة فى منتصف الليل وفوق كل هذا
كانوا يصومون عن الكلام فتجدهم يحيون فى سكوت
كسكون الموت .

استيقظنا مبكرين - صباح الاثنين فى « هارلو » -
وتوجهنا للحمام قبل الافطار . وفى طريق عودتنا اقترب
مونتمورينسى فعلا غاية فى الحماسة . ان الموضوع
الوحيد الذى اختلف فيه مع مونتمورينسى هو القطط ،
فانا احب القطط بينما لا يحبها مونتمورينسى .

وعندما اقابل قطّة فى الشارع اداعبها بلطف وانحنى
عليها وأمسح بحنو على رأسها ، فترفع القطّة ذيلها فى
الهواء وتقوس ظهرها وتظل تدلك جسمها فى سرالى
يحب ووداعة . أما مونتمورينسى فانه ان صادف قطّة
فحتما سيعرف الشارع كله بأمر هذا اللقاء ، فالخوضاء
الناجمة عنه قد تصم الأذان .

اننى بالطبع لا ألوم كلبى على هذا ، لأننى اعتقد
أن كراهيته للقطط هى أمر غريزى فيه . فالكلاب التى
من نفس فصيلة مونتمورينسى تولد وبها من الشراسة
أربعة أضعاف ما فى أية فصيلة أخرى من الكلاب . .
ويستلزم الأمر مجهودا وصبرا من رجل عطوف حتى
يتم ترويضها ويحسن من طباعها .

اننى أذكر يوما كنت أقف فيه فى مدخل أحد متاجر
لندن الكبيرة ومن حولى كانت تقف مجموعة كبيرة من
الكلاب تنتظر أصحابها الذين كانوا يتسوقون داخل
المتجر . أنواع كثيرة من الكلاب فقد كان هناك كلبان
من كلاب المراعى ، وكلب من فصيلة « البولدوج » وآخر
من فصيلة « سان برنار » وبعض الكلاب من نوع
« النيو فوندلاند » وكلبا صيد من فصيلة « اليوركشير »
وبودل فرنسى وبعض الحيوانات الصغيرة التى فى
حجم القار .

كانوا جميعا يجلسون فى صمت ووداعة يخيم عليهم
سلام مهيب . وبعد فترة أنت سيدة شابة وجميلة تمسك

فى يدها بمقود كلب لطيف المظهر من فصيلة « فوكس »
- وهى نفس فصيلة مونتيمورينسى - وتركته عند الباب
مقيدا بين البولدوج والبودل الفرنسى . جلس الكلب
« الفوكس » ونظر الى جيرانه ثم رفع بصره الى اعلى
وبدا من تعبيرات وجهه انه كان يفكر فى امه . ثم فتح
فمه على اتساعه وكأنه يتثائب ثم دار ببصره مرة اخرى
فى الكلاب التى كانت تجلس حوله فى صمت وجلال .

نظر عن يمينه الى البولدوج الذى كان نائما يحلم .
ونظر عن يساره الى الودل الفرنسى الذى كان يقف فى
غرور وخيلاء . . ثم وبدون سابق انذار وبلا أى سبب
عض الودل الفرنسى فى قدمه الأمامية اليمنى فانطلقت
فى الفضاء صيحة ألم عظيمة .

سر « الفوكس » بما فعل فقرّر أن يستمر وقفز فوق
لبودل وهاجم كلب المراعى الذى كان نائما فصحا .
وفى الحال بدأت معركة حامية الوطيس مع « الودل » !
بينما عاد « الفوكس » الى مكانه وأمسك البولدوج من
اذنه محاولا أن يرمى به بعيدا . مما جعل البولدوج
يهاجم كل من استطاع أن يصل اليه بما فى ذلك حارس

البوابة وترك « للفوكس » الفرصة ليستمتع بمعركة
أخرى بينه وبين « اليوركشير » .

وهكذا أخذت كل الكلاب التي في المكان تتقاتل
وكان حياتها معلقة على نتيجة هذه المعركة . كانت
الكلاب الكبيرة تتصارع مع بعضها البعض بينما تتعارك
الكلاب الصغيرة فيما بينها . ومن وقت لآخر تعرض
الكلاب الكبيرة في أرجلها . . . !

وصار مدخل المتجر ساحة معركة وامتلاً بعاصفة
من الضوضاء وتجمع الناس يتزاحمون ليعرفوا من الذي
قتل . وجاء رجال معهم أعمدة وأطواق وحاول أن
يفصلوا ما بين الكلاب ثم حصر رجال الشرطة .

وفي وسط كل هذا جاءت السيدة الشابة الجميلة
والتقطت كلبها الحميل ! - الذي كان قد عض الكلب
اليوركشير عضاً مريعة - بينما ارتسمت على وجهه
أمارات البراءة فقبلته وسأله برقة إن كان قد تعرض
للإصابة من أحد تلك الكلاب الشرسة . فرد عليها بعينييه
البريئتين النظرات وكأنه يقول :

— أوه ، انتنى بسعيد أنك أتيت لتحمليني بعيدا عن
هذا المشهد القذيع .

هذه هي طبائع الكلب ، الفوكس ، .. لهذا فانا لا
ألوم ، مونتمورينسى ، لكونه حادا مع القطط . الا انه
هو نفسه تمنى لو انه لم يكن كذلك فى هذا الصباح .

فبينما كنا عائدين من الحمام وفى منتصف
الطريق على الشارع الرئيسى ، اندعشت أمامنا فجأة
قطعة خرجت لتوها من أحد المنازل وبدأت تجرى بسرعة
عبر الشارع ، فأطلق مونتمورينسى صيحة فرح عظيمة
.. صيحة كصيحة جندي عديم الرحمة رأى نصره
بعينه وأخذ يطارد أعداءه المنسحبين ..

كان عدوه هذه المرة قطعة كبيرة سوداء لم أر اكبر
ولا اقبح منها منظرا من قبل . كانت قد فقدت ذيلها
واحدى اذنيها وجزءا كبيرا من أنفها . كانت حيوانا
طويلا مخيفا كله عضلات ، وكانت تبدو وديعة هائلة
البال .

اندفع مونتمورينسى خلف القطعة المسكينه بسرعة

عشرين ميلا في الساعة . لكن القطّة لم تسرع بالمفرار بل لم يبد عليها أنها قد فهمت أن حياتها في خطر فظلت تسير بهدوء حتى أصبح الكلب المقاتل على بعد خطوة واحدة منها فاستدارت وجلست في منتصف الطريق ونظرت الى مونت مورينسي بتحد وكأنها تقول له :

— نعم ، هل تريدني ؟

ولم تكن الشجاعة تنقص مونت مورينسي على الإطلاق ولكن لابد أن شيئا ما في نظرات تلك القطّة جمد الدماء في شرايين الكلب الشجاع . فتوقف فجأة ونظر بامعان في وجه القطّة .. لم يكن شمة كلام ولكن الحديث الذي يتخيله المرء أنه دار بينهما كان كما يلي :

القطّة : هل يمكنني تقديم أي شيء لأجلك ؟

مونت مورينسي : لا .. لا شكرا !

القطّة : لاتحش الكلام ان كنت حقا تريد شيئا ..

مونت مورينسي (وهو يتفهم) : أوه ، كلا .. على

الإطلاق . لا داعي لأن تقلقى نفسك لأجلى . أخشى

أنى . . أنى قد ارتكبت خطأ ما فقد ظننتك شخصا آخر
أعرفه . أعتذر لمضايقتك وشكرا .

القطة : لاداعى للشكر . ولكن هل أنت متأكد من أنك
لا تريد منى أى شيء الآن ؟

مونت مورينسى (وهو لا يزال يتقهقر) : لا . لا شيء
شكرا . لا شيء على الإطلاق ! انك كريمة حقا أسعدت
صباحا .

القطة : أسعدت صباحا . . :

وعاد الكلب وقد وضع ذيله بين فخديه واتخذ له
مكانا مهيلا بيننا . وحتى هذه اللحظة لو أنك نطقت
أمامه بلفظ قطة . فإنه سيرتعد وينظر اليك باستعطاف
يرجوك ألا تفعل !!

بعد الإفطار ذهبنا نتسوق ونشتري ما يكفيننا لثلاثة
أيام . وقال جورج أننا يجب أن نشتري بعض
الخضراوات الطازجة حيث أنه من الضار بصحتنا أن
يخلو طعامنا منها لفترة طويلة . وقال أن طهيها سهل

وأنه سيتولى هذا الأمر . . فاشترينا عشرة أرطال من البطاطس وكمية كبيرة من الفاصوليا وبعض البصل وبعض شرائح اللحم وبعض الفاكهة بالإضافة الى قطع الدجاج الروستو . وفى جولتنا بالمدينة اشترينا بعض الفاكهة والكعك والخبز والمربى والزبد والبيض وأشياء أخرى .

كانت جولتنا فى مدينة « مارلو » ناجحة تماما . فعند كل متجر كنا نقف أمامه ونصر على أن نشترى منه بعض الأشياء . وكنا نتنظر حتى يحزم لنا البائع حقيبة الأشياء ثم نأخذ صبي المتجر معنا ليحملها لنا ، وقد ذهبنا لعدة متاجر واتبعنا هذا النظام عند كل متجر . فكانت النتيجة هى أنه بانتهاءنا من الشراء كان عندنا مجموعة رائعة من صبيان المتاجر يحملون سلال المشتريات ويسيرون خلفنا . وهكذا لابد أن مسيرتنا من وسط المدينة الى ضفة النهر كانت أكبر مظهرة شهدتها مدينة « مارلو » منذ وقت طويل .

وكان ترتيب المسير فى المظاهرة كالتالى :

مونتموريتسى يحمل فى فمه قطعة من عصا . .

كليان قبيحا المنتظر من أصدقاء مونثموريينسى ..
جورج حاملا المعاطف والأغطية وفى فمه غليوته
الصغير ..

هاريس يحاول ألا يتعثر وهو يحمل حقيبة جلدية
تكاد تنفجر حفا بها فى يد ، وفى يده الأخرى يحمل
زجاجة عصير برتقال ..

ثم صبى البقال وصبى الخباز يحملان السلال ..
ثم صبى من الفندق يحمل سلة ..
ثم كلب طويل الشعر من كلاب الطريق ..

ثم رجل عجوز يحمل حقيبة وبجواره صديق حميم
له يضع يديه فى جيوبه بينما يضع فى فمه غليوننا قصيرا
منحينا ..

خلفه يسير صبى الفكهانى يحمل سلة الفاكهة .
ثم .. أنا أحمل ثلاث قبعات وزوجا من الأحذية
ذات الرقبة ..

ثم ستة أطفال صغار وأربعة كلاب ضالة ..

وعندما وصلنا الى مرسى القوارب قال لنا حارس
المرسى :

- دعنى أساعدك ياسيدى أين سفينتكم أو يختكم
هنا ؟ !

وعندما أخبرناه أن مالنا فى المرسى انما هو قارب
صغير بمجدافين وشرع صغير بدت على الرجل أمارات
الذهول .

واجهتنا فى هذا اليوم بعض المتاعب مع القوارب
البخارية التى كانت تملأ صفحة النهر رائحة غادية فى
أعداد كبيرة فالיום هو اليوم السابق على أسبوع سباق
« هنلى » للقوارب البخارية .

بعض هذه « القوارب البخارية » كان يسير منفردا
وبعضها الآخر يصحبه يخت للمبيت . انتهى أكره
القوارب البخارية وأظن أن كل من يستعمل القوارب
ذات المجدافين يكرهها مثلنى . فهى تصدر ضوضاء

كريمة تثير كل نوازع الشر في نفسى درجة أننى اتعتى
لو قدر لنا العودة الى تلك الزمان الذى كان يمكننا فيه
أن نقول رأينا بصراحة مطلقة فى وجه الآخرين
باستعمال البلطة والسهم والقوس .

انى على ثقة تامة أن صوت نغيرها المزعج المستبد
يأمرك بالابتعاد وافصاح النهر لها وحدها يعتبر فى حد
ذاته عذرا وجيها لك لو أنك اتهمت بجريمة قتل أحد
اصحابها أمام محكمة تشكل من رجال النهر .

وحدث أن تركناهم يصفرون لنا من خلفنا دون أن
نفسح لهم الطريق أو نسمح لهم بالمرور . وأظن أنه
بإمكانى القول أن قاربنا الصغير قد سبب أرباكا
وتعطىلا لتلك القوارب البخارية أكثر من أى شىء على
صفحة النهر .

لما أن يظهر أحد القوارب البخارية متجها ناحيتنا
حتى يصيح أحدها لرؤيته للعدو قادم . وبسرعة يتخذ
كل منا مكانه ، فأمسك أنا بالدفة ويجلس هاريس وجورج
بجوارى وقد أعطينا ظهورنا للقارب البخارى ونترك
قاربنا يتشاب بهدوء فوق صفحة النهر .

وعندما يقترب منا القارب البخارى يأخذ فى
اصدار نفيه المزعج يحذرنا ، ولكننا نظل نساب على
صفحة الماء بهدوء ، وبعد مائة ياردة أخذ يصفر ثانية
وهذه المرة فى غضب شديد ، وعال ركابه على جوانبه
وأخذوا يصيحون وينادون علينا وأبدا لم نكن نتصت
و نسمع لهم . فقد كان هاريس يحكى لنا احدى قصص
أمه ، وتشد القصصة كل انتباهنا أنا وجورج وبنملكنا
الحرص على ألا تفوتنا منها كلمة واحدة .

ثم يطلق القارب البخارى نفيه الأخير البائس
والذى يكاد يفجر ألتة ، ويستدير بعنف ليعتفادانا فينصرف
ويكاد يقفز على ضفة النهر فيندفع كل من على سطحه
الى مقدمته وهم يصرخون ويصيحون والناس على
ضفة النهر يأخذون فى الصراخ وينادون علينا ، حتى
القوارب المارة تشترك فى هذا الصياح حتى يتحول
النهر كله ولعدة أميال الى مظاهرة رهيبه .

ولهذا اضطر هاريس الى قطع استرساله فى القصص
عند أكثر المواقف تشويقا فى حكايته ناظرا اليها دهشة
قائلا لجورج فى قزع :

— يا الهى ، انظر يا جورج .. قارب بخارى !

فيرد جورج يهدوء :

— حسن ، لقد تصورت ائى سمعت شيئا بالفعل .

وانتايئنا حالة من الذعر والارتباك ، ولا نتمكن من
اخراج قاربنا عن الطريق فيترأحم ركاب القارب البخارى
ويصيمون علينا يوجهوننا فنسمع من يقول :

— اجذب مجدافك الايمن .. انت .. انت ايها
الغبى ، الى الخلف مجدافك الايسر ، لا .. لست انت
الآخر ، دع الدفة كما هى الا تفهم .. الآن كلكم معا .
لا ليس بهذه الطريقة اوه انك ... !

ثم ينزلون قاربا صغيرا من ركبهم ويسرعون
لانقاذنا ، وبعد ربع ساعة من الجهد الشاق يتمكنون من
اخراجنا الى جانب الطريق ويواصلون بعد هذا سيرهم
فنشكرهم شكرا جزيلا ونرجوهم ان يجرونا معهم ولكنهم
كانوا يرفضون ذلك بعنف ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الثاني عشر

سر اختفاء هاريس والبيخنى الأيرلندى

تناولنا غداثنا فى هذا اليوم على ضفاف النهر فى بلدة « وارجريف » .. وخلال هذا الغداء أصيبت أنا وجورج بصدمة عنيفة .. فى الواقع أن هاريس قد تلقى صدمة شديدة هو الآخر ولكنها لم تكن فى عتف الصدمة التى تلقيناها نحن ..

كنا نجلس فى حقل على مسافة حوالى عشرين خطوات من حافة النهر ، وكنا قد جلسنا لتونا ، وكان هاريس يضع بين ركبتيه قطيرة شرائح اللحم ليقطعها ،

بينما كنا ننتظره أنا وجورج حاملين أطباقنا المتلهفة
لتقطيع الفطيرة .

وقال هاريس :

- أليست معكم شوكة هنا ؟ اننى أحتاج لشوكة
لتقطيع الفطيرة .

وكانت سلة الطعام خلفنا مباشرة فالتفتنا أنا
وجورج للخلف فى وقت واحد كى نخرج الشوكة منها .
ولم يستغرق هذا أكثر من خمس ثوان ، ولكننا عندما
استدرينا كان هاريس ومعه فطيرة اللحم قد اختفيا .

كان الحقل الذى نجلس فيه مفتوحا وواسعا ولا توجد
اية اشجار عالية أو حواجز - لمسافة - مئات الأمتار
- ولا يمكن أن يكون قد سقط فى النهر لأننا كنا نجلس
ناحية النهر ولكى يسقط فيه هاريس عليه أن يطير من
فوقنا أولا ..

درينا ببصرنا فى كل مكان حولنا .. ثم حمل كل
منا كى وجه الآخر . وقلت لجورج متعجبا :

- انكون الملائكة قد حملته للسماء . ١٥

فقال جورج :

- ان كانوا قد فعلوا فمن غير المعقول ان يأخذوا
منهم الفطيرة ايضا .

بدا هذا القول معقولا ، وكان علينا ان نبحث عن
تفسير آخر ففقال جورج :

- اننى اعتقد ان الأرض قد ابتلعت

ثم اضاف بنبرة حزينة :

- ليتنا ماتركناه يقسم فطيرة اللحم . .

وبنبرة شديدة أدرنا بصرنا وتوجهنا به الى البقعة
التي كان يجلس عليها هاريس . . اه اخيرا ظهرت
الفطيرة ، هنا تجمد الدم فى عروقنا وانتصب شمس
راسينا ، فقد رأينا رأس هاريس . . لاشيء منه سوى
رأسه وقد وقفت بين الحشائش الطويلة بوجه احمر يتميز
غميظا .

أفاق جورج من الصدمة قبلى فصاح :

- تكلم ! قل لنا هل أنت حى أم ميت ؟ أين بقيتك ؟

فرد عليه رأس هاريس :

- أوه ، لا تكن سخيفا ! اننى أعرف أنكما قد فعلتما هذا عن عمد .

فاندھشنا انا وجورج وصعنا فى صوت واحد :

- فعلنا ماذا ؟ !

ورد علينا الرأس فى ضيق :

- لماذا جعلتمانى أجلس فى هذه البقعة بالذات ؟
انها خدعة سخيفة - هيا امسكا الفطيرة !

كان هاريس قد جلس دون أن يعرف على حافة
قرعة صغيرة تخفيها الأعشاب والحشائش وبينما هو
ينحنى للخلف وقع فى القرعة أخذا معه الفطيرة .
وقد علق هاريس على ما حدث قائلا أنه لم يعاجبا

في حياته مثل تلك المفاجأة فقد أحس أنه يهوى تحت الأرض دون أن يعرف السبب وكان أول ما طرأ على ذهنه هو أن هذا هو يوم القيامة .

منحتنا الطبيعة رياحا لطيفة حملتنا بعيدا عن « وارجريف » و « شيبلاك » . وعلى ذكر « وارجريف » فإن هذه المدينة الصغيرة التي تقع عند منعطف النهر تظهر لعينيك كلوحة جميلة قديمة ، خاصة إذا كستها أشعة الشمس الناعسة ثوبا أحمر مذهباً . . صورة رائعة لا تنسى !

ومن « شيبلاك » إلى « سوننج » كان النهر يحملنا خلال عدة جزر صغيرة . وكلما كان هادئا وناعما ووحيدا . ان هذا الجزء من النهر ترتع فيه أحلام الأيام الخوالي وتري فيه أشكالا ووجوها مضت لحالها منذ زمن وأشياء كان يجب أن تكون ولكنها لم تكن !

تركنا القارب عند المرسى في « سوننج » ونزلنا نتمشى في جولة بالقرية . انها من أكثر البقاع سحرا على طول ضفاف النهر . . انها أشبه بقرية خيالية

بنيت كديكور على خشبة مسرح • فكل البيوت تغطيها
الورود التي كانت في هذا الوقت - في بدايات شهر
يوليو - متفتحة تسبح وسط سحب من الاشسراق
والبهاء •

تجولنا في سوينينج لمدة ساعة • ونظرا لأن الوقت
قد تأخر وأصبح لايكفى للذهاب الى ريدينج فقد قررنا
أن نعود الى جزيرة « شيبلاك » لنمضي الليلة بها •

وعندما استقر بنا المقام وجدنا أن الوقت لايزال
مبكرا على النوم • فقال جورج أنه مادام لدينا وقت
متوفر فأنها ستكون فرصة رائعة لكي نصنع لأنفسنا
عشاء طيبا حقا • وقال أنه سيرينا ماذا يمكن أن يقدم
من طرق الطهي في رحلة على النهر • واقتراح أن
يستخدم الخضراوات وبقايا اللحم البارد وفضلات
الطعام الأخرى لنصنع منها طبخة تسمى « اليخنسى
الايرلندى » •

بدا هذا الاقتراح فكرة طيبة • وعلى الفور بدأنا
الاعداد • فجمع جورج الحطب وأشعل النار • وتوليت

أنا وهاريس كحت قشر البطاطس . فى الحقيقة انه
لم يخطر ببالي مطلقا ان عملية كحت وتقسير البطاطس
ستكون بهذه الصعوبة ، فقد بدأنا العمل بحيوية تلاشت
بعد الانتهاء من أول حبة بطاطس . فكلما كنا نكحت
كانت القشرة تزداد حتى لايتبقى من حبة البطاطس سوى
قطعة صغيرة . . . وبرغم أننا لم نتوقف عن العمل
المتواصل لمدة خمس وعشرين دقيقة ، فإننا لم ننته الا
من تقشير أربع حبات فقط . . ثم رفضنا الاستمرار وقلنا
سنستهلك بقية الليل فى اراحة قشر البطاطس من فوق
ملابسنا ومن على أجسامنا . .

ولكن جورج قال أنه من السخافة أن نصنع اليخنى
الأيرلندى بأربع حبات بطاطس فقط ، ولهذا فقد غسلنا
نصف دسته أخرى وقطعناها ووضعناها فى اناء المطبخ
دون أن نزيل قشرها . ثم وضعنا بصيلة وبعض
الفاصوليا وخلطهم جورج معا . ثم قال ان الاناء
لايزال فارغا ، فيحدثنا فى سلتى الطعام وأخرجنا كل
البقايا والفضلات التى وجدناها وأضيقناها الى اليخنى
. . ووجد جورج نصف علبة سمك فأفرغها فى الاناء
أيضا . . !

وعقب جورج على هذا بقوله أنه من مزايا اليخنى
الآيرلندى أنه يمكنك من التخلص من فضلات كثيرة .
ثم أخرجت أنا بعض البيض المكسور وأضفته الى الاناء .
للحق أنا لا أذكر الآن ماذا وضعنا أيضا فى اناء
الطبخ ولكننا على أية حال لم نترك أى شيء يضيع
سدى ، حتى مونتمورينسى الذى كان يتبعنا باهتمام
اختفى قرب انتهاء الطبخ، وعاد يحمل فى قمه جرذين من
جرذان الماء وكأنه يقدمهما لنا كمشاركة منه فى صنع
اليخنى الآيرلندى .

وجرت بيننا مناقشة حادة حول ما اذا كان من
الممكن اضافة الجرذان الى اليخنى أم لا . . قال هاريس
انه يرى اضافتها ، وأن أى شيء سيخلط مع اليخنى
حتما سيضيف اليها مذاقا جديدا ، ولكن جورج رفض
بإصرار فهو لم يسمع قط عن يخنى آيرلندى صنع بجرذان
الماء . .

فقال له هاريس :

— انك ان لم تجرب أبدا الأشياء الجديدة فكيف

يمكنك الحكم عليها ؟ ان اناسا مثلك هم من يقفون في وجه تقدم البشرية .

ومع ذلك فقد كان اليخني الايرلندي طبخة ناجحة تماما . فلم اذق في حياتي طعاما اشهى منه . كان به شيء ذو نكهة خاصة طازجة . كما اننا قد مللنا الأطباق المعتادة . وما هو ذا طبق ذو طعم لا مثيل على وجه الأرض !

اتمنا عشاءنا بالشاي وفطيرة الفواكه . . وبينما كنا نصنع الشاي ، قامت معركة بين مونتمورينسي وغلاية الشاي انتهت باصابات بالنسبة لمونتمورينسي .

طوال الرحلة ومونتمورينسي ينظر بفضول الى غلاية الشاي وقد اعتاد ان يجلس ويرقبها وهي تغلي بعيرة وارتيك . تم حاول ان يخيفها بان اخذ ينبسح عليها . . وعندما كان البخار يتصاعد منها كان يحاول ان يهاجمها . ولكن دائما كان هناك من يتدخل في اللحظة الأخيرة ويحمه بعيدا عن العدو ، قبل ان يهاجمه .

واليوم صمم مونتمورينسي على ان يقوم بالهجوم

فى الوقت المناسب وعند أول صوت صدر من الغلاية ،
نهض مزمجرا وتقدم فى اتجاهها بطريقة عدوانية •
وبالرغم من كونها غلاية صغيرة • الا انها كانت تعتلئ
شجاعة ، فبصقت فى وجه الكلب فزاد هياجه ونبح
نباحا شديدا وكأنه يقول لها :

— اه ، أتبصقين فى وجهى •• سوف أعلمك أن
تكونى مهذبة مع كلب صعب المراس مثلئ •• ومحترم
مثلئ •• تعالى أيتها الشيطانة البائسة ذات الأنف
الطويل !!

ومع هذه الكلمات اندفع نحو الغلاية الصغيرة
المسكينة ودفعها بأنفه • ولم يكذ يفعل هذا حتى أطلق
صرخة شقت صمت الليل •• صرخة ألم ورعب • ثم اندفع
هاربا لا يلوى على شئ • وأخذ يدور حول الجزيرة
ثلاث مرات • وفى كل مرة كان يقف فى محطات ليضع
أنفه فى الطمى الرطب •

ومنذ هذا اليوم ومونت مورينسى يرمق الغلاية
الصغيرة بنظرة هى مزيج من الخوف والريبة والكراهية

•• وما أن يراها حتى ينبج ويهرول هاربا واضعا ذيله بين رجليه • وفى اللحظة التى توضع فيها على الموقد يترك القارب كله ويجلس على الشاطئ حتى يتم اعداد الشاي •

بعد العشاء ، أخرج « جورج » آلة البيانجو يريد أن يعزف عليها ولكن هاريس منعه وقال أنه يعاني من صداع ويشعر أنه لا يقوى على تحمل الضوضاء • بينما قال جورج أنه يعتقد أن الموسيقى ربما تخفف عنه الألم ، فالموسيقى تريح الأعصاب وتذهب بالصداع • وعزف ثلاث مقطوعات صغيرة ليثبت كلامه لهاريس •

ولكن هاريس قال أنه يفضل الصداح •• ولم يستطع جورج أن يتعلم العزف على البيانجو الى الآن ، فقد قابل الكثير من التشبيط لهمته فى هذا المجال •• فقد حاول على مدى ليلتين أو ثلاث أن يعارس العزف ولو قليلا ، ولكن دون نجاح •• فقد كانت لهجة هاريس كافية لتحطيم طموح أى انسان ، كما أن مونتمورينسى كان لايفتا ينبج عند أية محاولة من جورج للعزف على

البانجو . وكان جورج يقذفه بفردة الحذاء وهو يتساعل
فى غضب :

— ماذا يقصد هذا الكلب بنباحه هكذا أثناء عزفى ؟
فيرد عليه هاريس وهو يدفع الحذاء بعيدا عن الكلب
يقوله :

— بل ماذا تقصد أنت من عزفك هذا أثناء نباحه ؟
دعه وشأنه . . ان أذنه موسيقية وعزفك يؤذيها !

لهذا قرر جورج التوقف عن تمارين البانجو حتى
يعود الى البيت . . لكنه لم يصادف حظا أسعد بعد
عودته للبيت ، فقد اعتادت السيدة « بوبيت » مديرة
المنزل أن تصعد الى حجرتة لتقول له أنها فى غاية
الأسف فهى نفسها تود لو تسمعه ، ولكن السيدة التى
تسكن فوقنا سيدة مسكينة تعاني من سوء حالتها
الصحية ويخشى طبيبها أن يؤذيها عزف السيد جورج !

وحاول جورج أن يأخذ آلة البانجو معه فى أوقات
متأخرة من الليل ليعزف عليها فى الميدان . ولكن الجيران
اشتكوا للبوليس الذى كمن له ذات ليلة وألقى القبض

عليه .. وكانت القضية المرفوعة ضده في المحكمة واضحة تماما واضطر لتقديم تعهد بالحفاظ على الهدوء لمدة ستة أشهر والا تعرض لعقوبة السجن !

وقد سيطر عليه الحزن الشديد طوال هذه الشهور الستة وحاول أن يبذل بعض الجهود للعزف على آلة البانجو مرة أو مرتين بعد انتهائها ، ولكنه كان دائما يقايل بنفس الفتور ونفس التجاهل من المحيطين به أخيرا استسلم وقرر أن يعرض آلة البانجو للبيع بسعر بخس ، وبدأ يتعلم لعب الورق بدلا من العزف ..

ان محاولة تعلم العزف على آلة موسيقية تعتبر في وقتنا من الأعمال المحبطة .. انكم قد تتصورون أن الناس ستساعد الهاوي لیتمكن من فنه . ولكن هذا لا يحدث ..

اننى أعرف شایا حاول تعلم العزف على آلة موسيقى القرب . وسوف تندمسون اذا علمتم مدى المقاومة التى لاقاها فى سبيل ذلك . فهو حتى لم يتلق أدنى تشجيع من أفراد عائلته أنفسهم ، بل ان أباه كان يقف ضده

بقوة منذ اللحظة الأولى وكان يعلن رأيه في كل وقت .
وكان صديقي معتادا أن يصحو مبكرا ليتمرن ،
ولكنه أجبر على أن يقلع عن تلك العادة بعد أن نهشته
أخته والتي كانت تعتبر من المتزعمات دينيا . وقالت له
انه لأمر فظيع أن يبدأ الانسان يومه بمثل هذا العمل .

وبدأ صديقي يتمرن على العزف في وقت متأخر من
الليل بعد أن يأوى كل أفراد العائلة الى مخادعهم .
ولكنه لم يستطع أن يواصل هذا أيضا . . فقد تسبب
عزفه في اكساب بيتهم سمعة سيئة . فالمارة العائدون
لنازلهم في أوقات متأخرة من الليل كانوا يتوقفون أمام
البيت وينصتون . . وفي الصباح ينشرون أخبار قصة
جريمة القتل التي وقعت في منزل السيد جيفرسون ،
وكيف أنهم استمعوا طوال الليل لصرخات القتل
وصياح المقاتل وصرخات الاستغاثة من بقية سكان المنزل
وفي النهاية كانوا يسمعون حشرجة أنفاس القتل وهو
يموت .

بعد هذا تركوه يتمرن في المطبخ . في مؤخرة

البيت بينما تكون كل أبواب المنزل مغلقة بالمزاليج ، ولكن
أصوات عزفه كانت تصل الى حجرة المعيشة وتسمع
بوضوح . وكانت تتسبب أحيانا في بكاء أمه .

أخيرا بنوا له مخبأ تحت الأرض في الحديقة على
بعد نصف ميل من المنزل وتركوه يأخذ آله ويذهب الى
هناك كلما أراد أن يتعمرن على العزف . . . وكان يأتيهم
زائر قد لا يعلم بأمر هذا المخبأ ، وقد ينسون أخباره
به ، فيخرج ليتجول حول المنزل ويفاجأ بصوت موسيقى
القرب يتبعث من مكان مجهول ودون سابق انذار . .
فاذا كان رجلا قويا فانه قد يفيق من الصدمة بعد وقت
قصير ، أما اذا كان انسانا عاديا فانه قد يصاب
بالجنون !

الفصل الثالث عشر

هاريس وحيدا في القارب

أحس هاريس - بعد عشاء هذه الليلة - ببعض الضيق . واعتقد أن اليخني كان السبب . . ولهذا تركناه - أنا وجورج - في القارب واتفقنا على أن نتجول قليلا في (هنلي) . . بينما يبقى هاريس في انتظارنا . وقد قرر هاريس أن يجلس ليتناول كأسا من الوسيكي ، ثم يصلح بعض الأشياء خلال الأمسية .

وقد اتفقنا معه على أن تنادي عليه عند عودتنا ليجدنا بالقارب الى ناحيتنا ويلتقنا . . وأكدنا عليه ألا ينام فوعدنا بالألا يفعل .

كانت مدينة « هنلى » تستعد لسباق القوارب وكانت
مزدحمة بالبشر . وقد قابلنا عددا كبيرا من معارفنا
فى المدينة ، قضينا معهم بعض الوقت . . . وقد مر الزمن
فى صحبتهم ممتعا وسريعا حتى ان الساعة كانت قد
بلغت الحادية عشرة عندما بدأنا نشق طريق العودة
الى بيتنا ، اقصد قاربنا الصغير الذى تعودنا ان نسميه
بيتنا منذ بدأت هذه الرحلة . وكانت المسافة بيننا وبين
بيتنا تبلغ نحو أربعة أميال طولا . .

كانت ليلة قارسة البرد موحشة ، تتقاطر فيها خيوط
من المطر الخفيف . وكنا نسير فى الحقول المظلمة
الصامتة نتحدث بصوت خفيض ونتساءل ان كنا حقا
نسير على الطريق الصحيح . . . لكننا نحلم بالقارب المريح
والضوء اللامع المنبعث من خلال الشراع المشدود .
وتدور فى رؤوسنا الأفكار عن هاريس ومونتموريثسى
والويسكى . وتمنينا لو اننا معهم جميعا الآن .

تخيلنا أنفسنا فى القارب متعبين جائعين نجلس
الى طعام العشاء ونأكل اللحم البارد وتناول بعضا من

قطع الخبز .. ونسمع بأذاننا صوت السكاكين والشوك
المرح وهي تجري على قطع اللحم تقطعها . وصوت
ضحكاتنا يملأ المكان ويهتك ستر الليل .. حلمنا بكل
هذا فأسرعنا نغذ السير على الطريق .

أخيرا امتدينا الى الطريق الصحيح فاطمان قلوبنا
واسترحنا من حيرتنا ، فلم نكن حتى هذه اللحظة ندري
أنسير في اتجاه النهر أم نسير مبتعدين عنه .. وكـم
تكون هذه الحيرة مؤلمة عندما يكون الانسان متعبا
جائعا يتوق الى النوم .. بعدنا الآن عن المدينة وقد
بلغت الساعة الثانية عشرة الا الربع وهنا قال جورج
بقلق :

— الا تذكر أية جزيرة كانت ؟ هل تذكر ؟ !

فأجبتة وقد بدأ القلق يساورني بدورى :

— لا .. لا أذكر .. كم كان عدد هذه الجزر ؟ !

— أربع فقط . على أية حال سيكون كل شىء

على مايرام .. ان كان هاريس متيقظا ..

وما أن وصلنا الى الجزيرة الأولى ، حتى أخذنا
نتأدى بصوت عال • ولكن مامن مجيب • فتوجهنا
الى الجزيرة الثانية وفي مواجهتها كررنا المحاولة •
وحصلنا على نفس النتيجة •

ثم قال جورج فرحا :

— أوه ، لقد تذكرت • • لقد كانت الجزيرة الثالثة !
فعدونا والأمل يحدونا في اتجاه الجزيرة الثالثة •
ولكننا عندما وصلناها ونادينا على هاريس لم نسمع
الا صوتينا •

كان الموقف قد صار خطيرا فقد جاوز الوقت منتصف
الليل والفنادق في كل من « شيبلاك » و« هنلى » ستكون
ممتلئة ، ولا يمكننا أن ندور على أصحاب الأكواخ
وحراس المنازل نستجديهم حجرة نبيت فيها •

اقترح جورج أن نعود أدراجنا الى مدينة « هنلى »
ونضرب شرطيا عساهم يحتجزوننا في قسم الشرطة
فنبيت ليلتنا في دفاء المتخشبية • ولكن ماذا لو أن

الشرطى رد علينا فضربنا كما ضربناه ولم يحبسنا
بالقسم . كما أننا بالطبع لا يمكننا أن نقضى الليل نتعارك
مع رجال الشرطة . وقد يحدث عالا تريده فنضرب
الشرطى أكثر من اللازم وننال حكما بالسجن ستة
أشهر .

وفى ياس عاودنا المحاولة عند الجزيرة الرابعة .
وكانت تبدو غارقة فى الظلام . . . ولكننا لم نجن شيئا
أفضل مما جئنا من قبل !

وبدا المطر ينهمر بغزارة عاقدا عزمه - على ما يبدو
- على الاستمرار بهذه الصورة وغرقنا نحن فى الماء
. . . وفى حيرتنا . . . ترى هل كان عدد الجزر أربعاً فقط ؟
. . . ترى هل اقتربنا حقاً من الجزر أم ترانا مازلنا على
بعد ميل منها ؟ . . . ووصل بنا الأمر الى أن ظننا أننا
على الجانب الآخر من النهر . . . كان كل شيء حولنا
غريباً وموحشاً وغارقاً فى الظلام !

وفى اللحظة التى فقدنا فيها كل أمل فى النجاة .
التقطت عيناي شعاعاً من ضوء شاحب يتراقص بين

الأشجار منبعثا من الضيقة المقابلة . فى البداية ظننته
من صنع الأشباح . ولكنى فى اللحظة التالية اكتشفت
أنه قارئنا ، فأطلقت صـيحة جعلت الليل يهتز فى
فراشه !

وحبسنا أنفاسنا فى انتظار الرد . . ثم وبعد دقيقة
. . أود . . يا الهى . يالها من موسيقى تنبعث من طيات
الظلام ! . . ها هو صوت مونتمورينسى يرد على ندائنا
. . وصحنا ثانية بصوت كان كافيا لايقاظ الموتى تحت
المثرى . وبعد أن انتظرنا فترة أخرى خلناها ساعة
كاملة وهى لم تتعد فى الحقيقة خمس دقائق ، رأينا
القارب المضىء يزحف ببطء فى الظلام وسمعنا صوت
هاريس يسألنا ناعسا : « أين كنا ! » .

كان هناك شيء ما غريب يبدو على هاريس . . شيء
أكثر من الإرهاق . فبدلا من أن يجدف الى ناحيتنا أخذ
القارب الى مكان يستحيل علينا أن نبلغه ثم راح فى
النوم . واستدعى الأمر كما هائلا من الصراخ
والصياح لايقاظه وبث بعض الاحساس فى عقله .
وأخيرا نجحنا وصرنا على ظهر القارب !



وأخيرا عثرتنا على الممر الصحيح !

عندما وصلنا القارب لاحظنا أن علامات الحزن
ترسم على وجه هاريس . كان شكله يعطيك انطباعا
لرجل واجه الكثير من المتاعب ، فسألناه ان كان قد
حدث له أى شيء أثناء غيابنا فأجاب بقوله :

— الأوز !!

هكذا قال « الأوز ! » فقد كان يبدو أننا رسونا
بالقارب عند عش للأوز البرى ، وكانت أنثى الأوز قد
عادت الى عشها — بعد مفادرتى أنا وجورج للقارب —
وانتابها غضب شديد لرؤية قاربنا يرسو بالقرب من
عشها . ويبدو أنها أظهرت هذا الغضب بطريقة ضايقت
هاريس فطردها بعيدا . ولكنها عادت ثانية وقد
أحضرت ذكرها . . وقال هاريس أنه قد دخل معركة
حقيقية مع هذين الطائرين . . وفى النهاية انتصرت
الشجاعة والحكمة وانسحب الطائران منهزمين !

ولكنهما سرعان ما عادا ثانية وقد أصبح عددهم
ثمانية عشر طائرا هذه المرة ، ولا بد أنها كانت معركة
رهيبة — بصرف النظر عن أن احصاء هاريس لعدد

الأوز لم يكن دقيقا بل كان مشوشا - فقد حاولت طيور
الأوز أن تسحبه هو ومونتيمورينسى خارج القارب
لتفرقهما . ولكن هاريس دافع عن نفسه دفاع الأبطال
على مدى أربع ساعات . واستطاع أن يهزمهم جميعا
ورأى فلولهم وهي تفر هاربة وجراحها تنزف حتى
الموت .

سال جورج هاريس قائلا :

- كم كان عدد الأوز في تلك المعركة ؟

فأجاب هاريس وهو يغالب التعاس :

- كان عددها اثنتين وثلاثين أوزة . .

- ولكنك قلت لتوك أنهم كانوا ثمانى عشرة أوزة

فقط .

- لا . . أنا لم أقل هذا ، بل قلت اثني عشر طائرا

هل تعتقد أنى لا أحسن العد .

وهكذا لم يقدر لنا أن نعرف أبدا حقيقة عدد الأوز

البرى فى تلك المعركة التاريخية . فعندما أصبح الصباح
وسألنا هاريس ثانية عن عدد الأوز ، أجاب بدهشة
قائلا :

— اى أوز ؟!

وبدا عليه أنه اعتقد أنى وجورج كنا نحلم أو نهذى!

كم كان جميلا أن نعود الى بيتنا — قاربنا — بعد
كل مخاوف تلك الليلة . وما ان استقربنا المقام فى
القارب حتى بدأنا فى تناول عشاء شهى . وأردنا — أنا
وجورج — أن نتناول كاسين من الويسكى لكننا لم نجد
قطرة واحدة منه ، فسألنا هاريس عما فعله بالويسكى ،
لكنه لم يبد أدنى اشارة عما تبين أنه قد فهم ماذا نعنى
بقولنا « ويسكى » . . . ولكن مونتمورينسى بدا عليه أنه
قد فهم وأنه يعرف شيئا ما ولكنه لم يفصح عنه .

تمت نوما عميقا فى تلك الليلة ، وكان من الممكن
أن أنعم بنوم أفضل لولا هاريس . فقد استيقظت بعد أن
شعرت به للمرة العاشرة يفتش القارب كله بمصباح
يحملة بحثا عن ملابسه . . . أنه كم كان يبدو قلقا بشأن

ملايسه طوال الليل . . وقد دفعنى من مرقدى ودفع
جورج أيضا ليرى ان كنا نرقد فوق سرواله ! وعندما
فعلها ثانية ثار فيه جورج وقال له بحدة :

— لماذا بحق السماء تريد سروالك الآن فى منتصف
الليل ؟ لماذا لا ترقد وتنام وتدعنا ننام ؟ !

أما أنا فقد شعرت أن هاريس يواجه مشكلة حقيقية
وفى المرة التالية صحت لأنه لم يستطع العثور على
جوربه . وأخر ما تحتفظ به ذاكرتى المشوشة عن تلك
الليلة هو أنتى كنت اتقلب على جنبى عندما سمعت
هاريس يهمهم بشيء ما عن اختفاء مظلاته بطريقة غير
عادية !

استيقظنا فى الصباح التالى فى وقت متأخر .
وتناولنا افطارا بسيطا ونظفنا القارب ، ووضعنا كل
شئ فى مكانه . وفى حوالى العاشرة أطلقنا سراح
القارب عازمين على الاستمتاع بيوم جميل من أيام
رحلتنا .

فى البداية قال هاريس أنه يرى من الأفضل أن أقوم

أنا وجورج بالتجديف بينما يمسك هو بالدفة .. أوه !
كان حقيقا بهاريس - أن هو تحرى العدل - أن يأخذ
هو وجورج المجدافين ويدعا لى الدفة لاستريح قليلا .
فقد كان من الواضح لى أنتى أقوم بأكثر من نصيبى من
العمل طوال هذه الرحلة وقد بدأت العضايق حقيقة بسبب
هذا الأمر ..

أنتى دائما أقوم بقدر من العمل أكثر مما يجب
على القيام به .. ولم يكن العمل فى حد ذاته هو ما
اعترض عليه ، فانا يمكننى أن أقوم بعمل شاق أربع
ساعات متواصلة . ولا أعتقد أن هناك قدرا من العمل
يرهقنى بالاضافة الى أنتى دائم الاعتزاز والفخر بما
أقوم به .

ولكن وبالرغم من ولعى بالعمل ، فأننى أحب العدل
أيضا . أنتى لا أطلب أكثر من نصيبى ، ولكنى دائما
أحصل على أكثر منه فى العمل - هذا على الأقل ما يبدو
لى - وهذا ما يقلقنى .. ولكن جورج قال انه لا يجد
أى مبرر لقلقى وضيقى بخصوص هذا الموضوع ، فهو

يعتقد أن خيالي هو الذي يجعلني أتصور أنني أقوم
بأكثر من نصيبي في العمل بينما أنا - في رأيي - لا أقوم
حتى بنصف ما يجب على القيام به !

لقد لاحظت - في هذا القارب - أن كل فرد يعتقد
أنه يقوم بكل العمل وحده . فهاريس يتصور أنه وحده
الذي يعمل . بينما أنا وجورج في غاية الكسل .
ولكن جورج ضحك من فكرة أن هاريس قد قام بأي عمل
سوى الأكل والنوم ، فقد كان يعتقد أنه - أي جورج -
قد قام بكل الأعمال التي يمكن ذكرها . وأضاف أنه لم
ير أناسا أكثر كسلا عني ومن هاريس . وقد أضحك هذا
هاريس وأثار سخريته فقال ضاحكا :

- يا للظرف ، ان جورج يتكلم عن العمل ! ان نصف
ساعة من العمل لتقتله .

ثم توجه بالكلام إلى قائلا :

- هل رأيته أبدا يقوم بأي عمل ؟
وقد أمنت على كلام هاريس بأنني بالتأكيد لم أر
جورج يقوم بأدنى عمل طوال الرحلة .

ولكن جورج رد على هاريس بقوله :

— حسن ، انتى لا افهم كيف يمكنك أن تحكم على
عملى وانت تقضى أكثر من نصف الوقت نائما .

ثم توجه بكلامه الى قائلا :

— أرايت هاريس يقظا فى غير أوقات الطعام ؟

ودفعنى حب الحقيقة الى أن أؤيد جورج فيما
ذهب اليه فقد كان هاريس يقدم المقليل من العون طوال
هذه الرحلة .

فقال هاريس :

— حسن ، انتى على أية حال قد قمت بعمل أكثر
مما قام به « جيروم » .

وأضاف جورج :

— لم يكن فى استطاعتك أن تقوم بأقل مما قام به .
أن « جيروم » يعتقد أنه مسافر على ظهر قاربنا وليس
واحدا منا .

كان هذا هو الشكر الذي قدمناه لى على احضارهما
وقاربهما الشمس عبر طول النهر من كتجستون الى هنا ،
كان هذا هو شكرهما على ادارة كل شيء من اجلهمسا
والعناية بهما والعمل بجد كالتنى عبد لديهما .

آه .. ماذا أقول ؟ هذا هو العالم الذى نعيش فيه !!

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الرابع عشر

رياضة التجديف

اتفقنا - بعد جدال - على أن يجدف هاريس وجورج حتى « ريدينج » . وادفع أنا المقارب من هناك . أن التجديف بقارب ثقيل ضد تيار قوى أصبح من الأشياء غير الجذابة بالنسبة لى فى الوقت الحاضر . فقد مضى وقت طويل على الزمن الذى كنت أتعمل فيه بعض الصعاب . أنتى الآن أفضل أن أعطى الفرصة للشباب الأصغر سنا لي تجربوا ويكتسبوا الخبرة بدورهم .

وقد لاحظت أن كل ذوى الخبرة - مثلى - يظهرون نفس المقدر من المتواضع والزهد فى الأعمال الصعبة أو

عندما يتعلق الأمر بالتجديف الشاق على صفحة النهر .
فمن الممكن دائما أن ترى رجلا خبيرا مضطجعا على
وسادة في قاع القارب وهو يشجع الشباب الذين
يقومون - فعلا - بالتجديف بأن يحكى لهم القصص
والحكايات عن أعماله المجيدة التي قام بها في العام
الماضي .

فنجده يقول للشابين المتصبيين عرقا من شدة الجهد
الذي بذلوه في التجديف :

- هل تسميان ماتقومان به الآن عملا شاقا ؟ ! اننى
و « جيم بيفلزجاك » جدفتنا ذات مرة من « مارلو » الى
« جورينج » خلال عصر يوم واحد - في العام الماضى -
ولم نتوقف ولا مرة واحدة . الا تذكر يا جاك ؟

ويتذكر جاك - الذى كان يرقد هناك فوق كل الأغطية
التي تيسر له جمعها قاضيا الساعتين الماضيتين نائما -
يتذكر وقد أيقظه السؤال الأخير أنه كانت تواجههم رياح
قوية غير معتادة طوال الطريق . بينما يضيف المتحدث
الأول - وهو يتناول وسادة أخرى ليضعها تحت رأسه :

– انى اعتقد أن المسافة كانت حوالى أربعة وثلاثين

ميلا !!

ولكن جاك يهمهم قائلًا :

– لا .. لا تخط المسافة هكذا يا قوم ، فقد كانت

ثلاثة وثلاثين ميلا على الأكثر !

ويدرك الارهاق « جاك » وتوم من جراء ما بذلاه

من جهد فى الكلام فيغلبهما النعاس وينامان بينما يشعر

الشابان بالزهو والفخر لأنهما يجدفان بقارب يحمل

بطلين مثل جاك وتوم فيجدفان بحماس أشد من ذى

قبل .

عندما كنت صغيرا ، كنت أستمع لمثل هذه الحكايات

وأصدق كل كلمة فيها . ولكن يبدو أن شباب هذه الأيام

ليسوا على نفس القدر من البراعة والسذاجة الذى

كنا عليه نحن فى شبابنا .

ذات مرة أخذنا – جورج وهارىس وأنا – أحد

الشباب معنا فى نزهة نهريّة . وقصصنا على سمعه

كل هذه القصص المعتادة ، بل وأضفنا سبع قصص أخرى من ابتكارنا . أحداها يمكن لأي طفل صغير أن يصدقها بسهولة . ولكن بالرغم من ذلك كان هذا الشاب يضحك ساخرا منا ويطالبنا من وقت لآخر أن نعيد على سمعه حكايات أعمالنا المدهشة وكأنه يطرب لسماعها .

في هذا الصباح كنا نتجاذب أطراف الحديث حول خبرائنا السابقة ونحكي الحكايات عن أولى خطواتنا على درب فن التجديف .

وكانت أولى ذكرياتي عن هذا الموضوع يوم أن كنا خمسة أصدقاء دفع كل منا ثلاثة بنسات واستأجرنا قاربا بنى بطريقة غريبة . وجدفنا به على صفحة بحيرة (ريجينت بارك) وانتهى بنا الأمر إلى أن جفنا ملبسا وأجسامنا في كوخ حارس الحديقة .

وبعد هذا ، تدربت جيدا على الطفو بطوف خشبي في البحيرات الصناعية . حيث قمنا هذه التجربة بإثارة أكثر مما يتخيل المرء ، خاصة عندما تكون في وسط البحيرة ويفاجئك صاحب الأخشاب والمواد التي

صنعت بها الطوف ويقف على الضفة ممسكا في يده
بعضا غليظة !

ان اول ماتحس به عند رؤيتك لهذا الرجل النحيل
هو أنك لا تجد في نفسك أية رغبة في لقاء أى انسان أو
ادنى ميل للمجادلة . وينتابك شعور أنه لو كان بإمكانك
أن تتسلل الى الضفة الأخرى وتعود للبيت بسرعة
وهدوء دون أن يراك هذا الرجل النحيل ودون أن تبدو
جلفا لتجنبك اياه . لقعلت هذا دون تردد ودون أن
تلتفت اليه . .

ولكن الرجل يبدو ملهوقا على أن يلقاك ويمسك
بتلابيبك ويتكلم معك !

وربما كان الرجل قريبا لوالدك ويعرف عنك الكثير
ولكن هذا لا يدفعك لأن تذهب اليه . وسيقول لك انه
سيعلمك كيف تأخذ الواحه الخشبية وتصنع منها طوقا
تركبه على صفحة الماء . ولكنك منذ أن عرفت كيف
تصنع هذا بنفسك ، فانك ترفض هذا العرض غير
الضرورى بالنسبة لك . ولن تجد في نفسك الرغبة في

أن تسبب لهذا الرجل المهذب أية متاعب إن أنت قبلت
هذا العرض .. وبالمطبع هو يقصد في الحقيقة أنه
سيعلمك - بطريقته - ألا تجرؤ ثانية على أخذ الواحه
لتصنع منها طوفا ..

على أية حال فإن رغبته في مقابلتك واضحة ،
والحيوية والعزيمة التي يجرى بها هنا وهناك لا يتسنى
له أن يكون موجودا عند البقعة التي ستنزل عندها
بالطوف ، تثير فيك العزة والفخر حقا .

فإن كان سميئا وأنفاسه مقطوعة فسيتمكنك أن
تجنبه بسهولة ، ولكن عندما يكون شابا ونفسه طويلا
فستجد نفسك مضطرا لمقابلته .. على أية حال ستكون
المقابلة قصيرة جدا ومعظم الحديث سيكون من جانبه
هو وفي اللحظة التي سيتمكنك فيها أن تفر منه فستفعل
دون توان .

قضيت ثلاثة أشهر في التدريب على استخدام
الطوف حتى اكتسبت من المهارة كل ما يمكن اكتسابه
في هذا الفن فقررت أن أجسرب التجديف الفعلي ،
فالتحقت بأحد اندية التجديف ..

وعلى صفحة نهر « لى » خصوصا فى أيام السبت
عندما يكون مزدحما بالقوارب ، سرعان ماتتلم كيف
تتعامل مع القارب وكيف تغلت من الاصطدام بالقوارب
الأكبر وتتفادى الغرق .

أما جورج فإنه لم يقترب من الماء حتى بلغ السادسة
عشرة من عمره . بعدها ذهب هو وثمانية من أصدقائه
فى نفس عمره تقريبا الى بلدة « كيو » فى أحد أيام
السبت ليستأجروا قاربا من هناك ويجدفوا به الى
« ريتشموند » ثم يعودون . . كان أحدهم ويسدعى
« جوسكين » قد استقل قاربا مرة أو مرتين قبل ذلك فوق
بحيرة « سيرينتاين » فى حديقة « هايد بارك » . .
وجوسكين هذا هو الذى أقنعهم بأن ركوب قوارب
التجديف متعة عظيمة .

كان تيار الماء شديدا عندما وصلوا الى المرسى ،
وكانت هناك رياح عاتية تصفر فوق النهر ، ولكن هذا
لم يمنعهم من الذهاب واختيار قاربهم . .

كان بالقرب منهم قارب سباق ذو ثمانية أزواج من

المجاديف قانجذبوا اليه . وكان صاحب القوارب غائبا
وكان صبية هو الذى يتولى المسئولية . وحاول الصبى
اثناءهم عن أخذ قارب السباق وعرض عليهم عدة
قوارب أخرى واسعة وعائلية ومريحة ولكنها كلها لم
تعجبهم وزاد اصرارهم على أخذ قارب السباق . .

ومن ثم جهزه لهم الصبى وخلعوا معاطفهم استعدادا لأن
ياخذوا أماكنهم فى القارب . ثم جلسوا فى أماكنهم .
وجاء ترتيب جورج على المجذاف الرابع . بينما اختار
صبى عصبي المزاج أن يعسك بالدفة ، فشرح له جوسكين
قواعد القيادة وتوجيه الدفة . أما جوسكين نفسه فكان
رقم واحد فى الترتيب ليقود بقية المجموعة . وأخذ
جوسكين يطمئن الآخرين ويقهمهم أن الأمر غاية فى
البساطة . وكل ما عليهم هو أن يراقبوه ويفعلوا مثلما
يقول . وبعد دقائق صاح الجميع يعلنون استعدادهم
فدفعهم صبى المرسى دفعة قوية .

لم يتمكن جورج من وصف ما حدث بعد هذا بدقة ،
فهو فقط يذكر أنه - وبمجرد البداية - قد تلقى ضربة

عتيقة في ظهره من مجداف رقم ٥ فانزلق مقعده من تحته واختفى اختفاء سحريا ووجد نفسه فجأة جالسا على سطح القارب ، وقد لاحظ أن رقم ٢ كان ملقى على ظهره في قاع القارب ورجلاه معلقتان في الهواء ١

وأخذ القارب يبتعد عن الشاطئ بسرعة ثمانية أميال في الساعة . وعروا من تحت كوبرى « كيو » وكان جوسكن هو الوحيد الذى يجدف بالفعل . وعندما حاول جورج - بعد أن استعاد مقعده - أن يساعده ، دفع المجداف في النهر ليضرب به الماء اختفى المجداف في الحال تحت القارب وكاد يأخذ جورج معه . وفي نفس الوقت ألقى الولد العصبي حبله الدفة في الماء وانفجر باكيا !

لم يعرف جورج - أبدا - كيف استطاعوا العودة ولكنه يذكر أن الأمر قد استغرق أربعين دقيقة كاملة . ويذكر أنه كان هناك زحام من البشر وقفوا يشاهدونهم - وكانهم يشاهدون عرضا في السيرك - من فوق الكوبرى ، وكان كل واحد من المشاهدين يصيح موجهًا

لهم نصيحة مختلفة - ولثلاث مرات كانوا يعبرون من تحت الكوبرى ولثلاث مرات كانوا ينجرفون تحت أقواسه ثانية - وكان الولد العصبى كلما رقع بصره ووجد الكوبرى فوق رأسه يتفجر باكيا - وبعد هذه الحادثة قال جورج انه لم يعد يتخيل مطلقا منذ هذا اليوم انه قد يستمتع بركوب القوارب فى يوم من الأيام .

أما هارى فكان أكثر تعودا على التجديف فى البحر . . وكان يفضل التجديف فى البحر أكثر من التجديف فى النهر كنوع من أنواع الرياضة . ولكننى لا أوافق على هذا رأى . فانا أذكر يوما أخذت فيه قاربا صغيرا عند شاطئ مدينة «ايسنبورن» فى الصيف الماضى . . كنت قد اعتدت على التجديف الجيد فى البحر منذ عدة سنوات ، وتصورت أننى سأقوم به خير قيام . لكننى اكتشفت أنى قد نسيت كل مايتعلق بهذا الفن فبينما كان أحد المجدافين يقوص عميقا فى الماء كان الآخر يطير منى فى الهواء ولكى أمسك بالمجدافين بأحكام وأضعهما فى الماء معا كان على أن أجدف واقفا . وكان البحر مزدحما بالناس وكان على أن أجدف عابرا

اياهم بهذه الطريقة السخيفة • فرسوت عند منتصف الطريق على الشاطئ • واستأجرت مراكبيا عجوز ليحذف بي عائدا •

اننى احب ان ارقب المراكبي العجوز وهو يحذف خاصة عندما يكون مستأجرا بالساعة • فهناك شيء ما هادئ ومريح فى طريقته • انه لايجب ان يتعارك او يناور ليمر من القوارب التى تقايله • وان مر قارب آخر بجواره وسبقه فانه لاينزعج مطلقا • • فى الحقيقة • • هو يتركهم جميعا يمرون منه ويسبقونه • • بل انه يدفع كل من يمر بنفس طريقته يسبقه دون ان يبالي بذلك •

ان هذا قد يسبب بعض المتاعب او الضيق لبعض الناس • ولكنى ارى ان هذا التواضع الهادئ الذى يظهره هؤلاء المراكبيون المستأجرون فى مثل هذه المواقف يعلمنا دروسا رائعة فى الرضا والحد من الطموح •

يقول جورج انه يفضل نوع القوارب الطويلة ذات القضيب الطويل الذى يدفع فى الماء حتى يصل الى

القاع فيدفع القارب للأمام ، وهو يجب أن يجريه كنوع من التغيير ، بدلا من المجاديف العادية ولكن هذه الطريقة ليست سهلة كما قد يبدو من الوهلة الأولى ، فهي تحتاج لتدريب طويل قبل أن يمكنك أن تؤديها بعمارة .

فأنا أعرف شابا تعرض لحادث اليم عندما خرج لأول مرة في قارب من هذا النوع فبعد أن تدرب عليها حتى ظن أنه قد عرف عنها كل شيء ، أخذ أحد القوارب ونزل به الى النهر ، وكان يجري في القارب من الأمام الى الخلف وعن الخلف الى الأمام مستعملا مجدافه المطويل دون حذر أو حرص وكأنه أحد الخبراء في هذا العمل .

وكان من الممكن أن يستمر الحال على ما هو عليه لولا أنه - وبينما كان ينظر حوله ل يتمتع بمناظر النهر خطا خطوة أكثر من اللازم - فكانت خطوة في الفضاء خارج القارب وانغرس المجداف في الطين ، وظل هو معلقا عليه بينما جرف التيار القارب بعيدا . كم كان يستحق هذا الوضع بالفعل . وعلى الضفة الأخرى

صاح صبي جلف ينادي على صديق له كي يأتي ويشاهد
هذا القرد المعلق على عصا في وسط الماء . .

ولم استطع أن أعاونه ، لأننا ولسوء حظه لم نكن
نحمل مجدافا احتياطيا . وكل ما استطعت أن أفعله
هو أن أجلس وأنظر إليه . ولن أنسى ماحييت التعبير
الذي ارتسم على وجهه عندما كان المجداف يقوص به
في الماء .

رأيتة وهو يفرق ببطء ، ورأيتة وهو يصارع من أجل
الخروج بينما ملايسه كلها قد ابتلت . ولم أستطع أن
أمنع نفسي من الضحك على مظهره الأحقر . واستمر
ضحكي عليه لبعض الوقت ثم أحسست فجأة أن الأمر
لا يستحق مني كل هذا الضحك فهانذا وحيد فوق القارب
بلا مجداف ، يحملني التيار ولا حول لي ولا قوة في وسط
اليم .

وانتابني شعور عارم بالغضب لأن صديقي الأرعن
قد أضاع المجداف برعونته وجريه خارج القارب بتلك

الطريقة • ألم يكن عليه - على الأقل - أن يترك لسي
المجداف •

حملنى التيار لمسافة ربع ميل حتى أصبحت على
مرأى من قارب صديق كانلقى بمرساته وسط النهر
وعلى ظهره صيادان كبير السن • وعندما وقع بصيرهما
على وانا اقترب مندفعاً بقوة التيار عنهما صرخا يطالبانى
بالابتعاد عن طريقهما ولكنى صحت قائلاً :

- لا حيلة لى !

فقالا :

- ولكن لما لا تحاول ؟ !

فأوضحت لهما الأمر عندما اقتربت منهما أكثر ،
فأمسكا بقاربى وأقرضانى مجدافا • أه ، لقد كان هناك
مصعب خلفهما بقليل ، لهذا فقد سعدت كثيراً بوجودهما
فى هذا المكان •

فى أول مرة خرجت فيها بقارب من ذاك النوع ذى
المجداف الطويل ، كنت فى صحبة ثلاثة رجال آخرين

كانوا معي ليعلموني كيفية التجديف بهذه الطريقة . ولما لم يتيسر لنا الخروج معا في نفس الوقت قررت ان أسبقهم الى النهر وانتظرهم حتى يجيئوا . وعندما وصلت الى شاطئ النهر قررت ان أنزل النهر بالقرب وأجرب التجديف حتى يجيئوا .

لكنني لم أستطع الحصول على قارب من هذا النوع عصر ذاك اليوم حيث كانت القوارب كلها قد أجرت . لهذا لم يكن لدي ما افعله سوى الجلوس على الضفة انظر الى النهر وانتظر الأصدقاء .

ولم يمض على وقت طويل وأنا على هذه الحال حتى شد انتباهي منظر رجل في قارب طويل بمجداف من النوع الذي يدفع في الماء حتى يقابل القاع . ولاحظت - عندهم - انه كان يرتدى سترة وكابا يشبهان تماما ما كنت ارتديه . وكان كما بدا لي مبتدئا في هذا المجال فطريقته في الأداء كانت رديئة جدا . . . أوه ، لا يمكنكم ان تتصوروا ماذا كان يحدث عندما كان يضع مجدافه في الماء . . . انه هو نفسه لا يعرف في الحقيقة .

أحيانا كان يمضى مع التيار ، وأحيانا عكس التيار
وأحيانا كان يدور حول نفسه ومع كل نتيجة يحصل
عليها من عمله كان يندهش ويفضرب في نفس الوقت . .

وبمرور الوقت تحول انتباه كل الناس حول النهر
الى المنظر الى هذا الرجل ومراقبته ومحاولة التنبؤ
بنتيجة ضربته القادمة في الماء .

وأثناء هذا وصل أصدقاؤى الى الضفة المقابلة
وأخذوا يشاهدونه بدورهم . . كان ظهره فى اتجاههم
فلم يروا وجهه . . لم يروا سوى سترقه و (كابه) فقط .
فاقترضوا أنه أنا . . وبما أن حبهم للبهجة والسرور
لايعرف حق أية صداقة أو رابطة فقد بدأوا يضحكون
عليه ويسخرون منه بلا رحمة .

ولم اكتشف خطأهم فى البداية . بل قلت فى نفسى
« يا لهم من أجلاف - كيف يتصرفون هكذا تجاه رجل
لايعرفونه أو يعرفهم » لكننى وقبل أن أنادى عليهم
وأنبههم لخطئهم ، اكتشفت حقيقة الموقف فتسالت
واختبأت خلف شجرة حتى لا يرونى . .

وكم سعدوا وتمتعوا بمحنة هذا الرجل المسكين . .
وعلى مدى أكثر من خمس دقائق أخذوا يتصايهون
ويضعكون ساخرين منه ، حتى فاض الكيل بالرجل
فاستدار ناحيتهم ليوبخهم وكانت المفاجأة حينما رأوا
وجهه !

وسرني كثيرا أن أراهم وقد غرقوا في خجلهم من
منظرهم السخيف وتصرفهم الأحقق . وأخذوا يعتذرون
للرجل ويوضحون له أنهم كانوا يظنونه شخصا آخر
يعرفونه ، وأنهم يهتمون إلا يظن بهم الفظاظة وعدم
اللباقة .

انى أذكر أن هاريس أخبرنى ذات مرة عندما كان
فى بولونيا يستحم فى البحر بجوار الشاطئ ، وأحس
فجأة بصفعة قوية على قفاه ، ثم بيد ثقيلة تدفع رأسه
بعمق تحت الماء . وكاد يختنق وأخذ يصارع بكل قوته
ليخرج رأسه من تحت الماء ، ولكن يبدو أن صاحب اليد
التي كانت تمسك برأسه كان يتمتع بقوة حصان ،
فضاعت كل محاولات هاريس للتخلص منه هباء .

فاستسلم وتخلّى عن الرفس برجليه وحاول أن يتوجه
بعقله إلى الأشياء المخالدة في الوجود وفي الحياة
الآخرة وفي هذه اللحظة أخلى الرجل سبيله فجأة ..

انتفض هاريس على قدميه ونظر حوله يبحث عن
مهاجمه . كان القاتل يقف الى جواره يضحك من أعماقه
ولكنه ما أن رأى وجه هاريس حتى بدا عليه الارتباك
الشديد وقفز للخلف مندهشا وقال في تلعثم :

- انى .. انى حقيقة أسالك المغفرة ياسيدى لقد
أخطأت و .. وظننتك واحدا من أصدقائى !

وغفر هاريس للرجل ، وقد أحس في قرارة نفسه
أنه - أى هاريس - رجل محظوظ لأن هذا الرجل العملاق
لم يظنه أحد أقاربه والا كان قد أغرقه فعلا .. !

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الفصل الخامس عشر

فن صيد السمك

وصلنا على مرمى من « ريدينج » في حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا . ولأن النهر فى هذه البقعة قذر وممل ، فإنه لا يحسن بالمرء أن يبقى طويلا فى جوار هذه البلدة .

عند هويس « ريدينج » صادفنا أصدقاء لنا فى قاربهم البخارى وقد تكرموا علينا فسحبوا قاربنا خلفهم أوه ، كم يكون جميلا أن يسحب قاربك فوق صفحة الماء دونما جهد منك . ان القارب لينساب بنعومة ومرح ، لولا تلك القوارب الصغيرة ذات المجاديف والتي كانت

تعرض طريق قاربنا البخارى - أقصد قارب أصدقائى
الذى يسحب قاربنا - اننا لكى نتجنب الاصطدام بهم
نضطر للإبطاء حتى نكاد نتوقف .

ان الأسلوب الذى يسير به أصحاب تلك القوارب
الصغيرة يثير الغيظ فعلا . أوه ، يجب أن يكون ثمة
رادع لهؤلاء الناس . انهم أجلاف يتمتعون بقدر كبير
من الملاحظة . . . انك لتستخدم نغير قاربك حتى تكاد آلاته
تنفجر لكى يتعطفوا ويقلقوا أنفسهم بأن يسرعوا فى
الابتعاد عن طريقك . يبدو اننى ساضطر لأن أغرق
أحدهم من وقت لآخر ليكون عبرة للآخرين .

انفصلنا عن قارب أصدقائى البخارى عند بانجبون
.. وهنا حاول هاريس أن يقنعنى بأن هذا هو دورى
فى التجديف . ولكن هذا الكلام بدالى غير معقول ، فقد
كان ما اتفقنا عليه فى الصباح هو أن أجذف بالقارب
لمسافة ثلاثة أميال من « ريدينج » . حسن اننا الآن
على بعد أكثر من عشرة أميال من « ريدينج » ! بالتأكيد
هذا هو دورهم - هم - فى التجديف .

لكننى لم أستطع أن أجعل جورج وهاريس يرون
الأمر على جليته كما كنت أراه . لهذا ومنعا للجدال
أعسكت أنا بالمجاديف .

تقع مدينة « جورينج » على احدى ضفتى النهر بينما
تقع مدينة « ستريتلاى » على الضفة المقابلة . انهما
بمقتان ساحرتان ويتمنى المرء لو يقضى فى هذا المكان
بضعة أيام . كنا قد عقدنا المعزم - من قبل - على أن
نصل الى « ولنجفورد » فى نفس اليوم . ولكن وجبه
النهر الباسم فى هذه البقعة الساحرة دعانا لأن نقضى
فترة أطول معه فلبينا دعوته . وتركنا القارب عند
الكوبرى ونزلت الى « ستريتلاى » لتناول الغداء . وكان
الأمر يحمل فى حقيقته رغبة فى ارضاء مونتمورينسى
بشكل كبير . . . |

ويقال أن المتلال الواقعة على جانبى النهر هنا قد
التحمت معا ذات مرة حتى صُنعت جدارا عبر نهر
التيمس . . وأن النهر انتهى هناك فوق « جورينج »
صانعا بحيرة عظيمة . . انتهى لا أستطيع أن أوافق أو

أعترض على هذه الحكاية الا أننى فقط أرددها كما سمعتها .

ان « ستريتلاى » تعد بقعة أثرية يعود تاريخها - مثل معظم المدن والقرى على هذا النهر - الى أيام البريطانيين والساكسون . أما « جورينج » فهى ليست على نفس القدر من الجمال كستريتلاى وقد لاتجد فى نفسك الرغبة فى قضاء وقت طويل بها كالذى تتمنى أن تقضيه فى ستريتلاى . ولكنها - على أية حال - بلدة جميلة وقريبة من محطة المسكة الحديدية فى حالة ما اذا أردت أن تتسلسل دون أن تدفع فاتورة الفندق .

مكثنا يومين فى « ستريتلاى » غسلنا فيهما ملابسنا فى البداية - وبناء على نصيحة جورج - حاولنا أن نغسلها بأنفسنا فى مياه النهر . لكننا منينا بفشل ذريع . بل بشيء أكثر من الفشل . اننا أصبحنا أسوأ حالا بعد غسلها . كانت ملابسنا - قبل غسلها - غاية فى القذارة، هذا صحيح، لكن كان من الممكن أن نرتديها على أية

حال . وبعد أن غسلناها في ماء النهر . . حسن . أن
النهر فيما بين ريدينج وهنلاي أصبح أنظف بعد أن
غسلنا فيه ملابسنا فقد تجمعت كل القذارة التي كانت
موجودة فيه وتعلقت بملابسنا . . ١١

وقالت لنا الفسالة التي ذهبنا إليها بعد ذلك في
ستريتلاي أنه لكي نكون عادلين معها فإنه يجب علينا
أن ندفع لها ثلاثة أمثال الأجر الذي يدفع لنفس الكمية
من الملابس . وأضاف أنه لم يكن غسيلا بل كان أشبه
بعملية الحفر . وبالطبع دفعنا المقاتورة دون أن ننبر
بحرف واحد .

ويعتبر النهر عند مدينتي ستريتلاي و «جورينج»
من مراكز الصيد الكبيرة . فالنهر في هذه المنطقة مليء
بكل أنواع السمك . ويمكنك أن تجلس وتصطاد طوال
اليوم . بعض الناس يفعلون ذلك ، لكنهم أبدا لا
يحصلون على شيء . . فلم يحدث أن رأيت - مطلقا -
شخصا قد اصطاد شيئا أكثر من سميكات لاتصلح للأكل
أو بعض القطط الميتة . لكن هذا بالطبع لا يحول دون

ممارسة الصيد ! . . ودليل الصيادين المحليين لايقول
كلمة عن اصطياد شيء ، وكل مايقوله هو أن النهر في
هذه البقعة مكان جيد للصيد . ومما شاهدته أصبحت
مستعدا لتأكيد هذه المقولة .

فلا يوجد مكان في العالم يمكنك فيه أن تصارس
الصيد أكثر من هنا . . بعض الناس يأتون الى هنا
ويقضون يوما كاملا في صيد السمك ، وآخرون يمكثون
الشهر ، ويمكنك - ان أردت - أن تقضي العام بطوله
تصطاد . . فالنتيجة في كل الأحوال لن تتغير .

يقول « دليل الصيد في نهر التيمس » « يمكنك
الحصول على سمك البرش هنا ، ولكن الدليل أخطأ
في هذه العبارة . إذ أن سمك البرش ربما يكون موجودا
- وبكثرة - في تلك البقعة ، بل أنه يمكنك أن ترى
أسماك البرش وهي تسبح بأعداد كبيرة بالقرب منك
وأنت تتعشى على الشاطئ . وقد تأتي وتقف ونصفها
العلوي خارج الماء فائحة أفواها لتلتقط فتات الخبز .
وإذا حدث ونزلت في النهر للاستحمام فأنها تتزاحم

حولك وتضايقتك • ولكنها أبدا لا يمكن اصطيادها بدودة صغيرة في نهاية سنارة أو ما شابه ذلك •

في الحقيقة أنا لست صيادا ماهرا • كنت قد أوليت هذا الأمر اهتماما كبيرا لفترة ما وكنت قد أحرزت - فيما أتصور - بعض التقدم • ولكن الصيادين الأكبر سنا والأكثر خبرة مني ، قالوا لي أنني لن أفلح أبدا في هذا المضمار ونصحوني بالتخلي عن هذا الموضوع ••

وأضافوا أنني ألقى الخيط بانتقان كاف ، كما يبدو أنني أملك إحساسا جيدا وهدوءا طبيعيا ولكنهم في نفس الوقت متأكدون أنني لن أكون صيادا ، وهذا لأنني لا أملك قدرا معقولا من الخيال •

فبعض الناس يعتقدون أنه لكي تكون صيادا ماهرا فإن كل ما تحتاجه هو القدرة على سرد الأكاذيب دون أن يحمر وجهك •• ولكن هذا الاعتقاد اعتقاد خاطيء • فالقاء الأكاذيب غير الفنية يعتبر أمرا عديم النفع •• فحتى المبتدئين يمكنهم أن يفعلوا هذا • ولكن المهارة الحقيقية تكمن في سرد التفاصيل الفنية واللمسات

الصغيرة واضفاء جو من الحقيقة على ماتقول . وهذا هو ما يتمتع به الصيادون ذوو الخبرة .

ان اى انسان يستطيع ان يأتى ويقول : « اوه ، لقد اصطدت مساء أمس خمس عشرة دسنة من سمك البرش » ! .. أو يقول : « لقد اصطدت يوم الاثنين الماضى سمكة سلمون مرقطة وزن ثمانية عشر رطلا وطولها أكثر من ثلاثة أقدام من الأنف حتى الذيل » .. وهكذا ، لافن .. ولامهارة فى مثل تلك الأقاويل . انها قد تظهر قدرا من الشجاعة لا أكثر .

لا .. ان الصياد الماهر لا يمكن ان يحكى أكذوبة بهذه الطريقة . بل ان طريقته يجب ان تدرس فى حد ذاتها . انه يدخل بهدوء وقبعته على رأسه ثم يجلس فوق أوثر المقاعد ويشعل غليونته ويأخذ فى التدخين ويترك الشباب الأصغر سنا يتحدثون عن انفسهم لبعض الوقت . ثم وخلال لحظة صمت يخرج غليونته من فمه ويعطرقه عدة طرقات ليخرج منه الرماد ويعلق بقوله :

— لقد حصلت على صيد جيد مساء يوم الثلاثاء الماضى .. ولكن لا يجعل بى ان أحكى لكم عنه ..

فيسألون بشغف :

- أوه ، لماذا ؟

فيقول بثقة وهندوء ودون أدنى ارتعاشة في صوته ،
بينما هو يملأ غليونه بالتبغ ويطلب من صاحب الحانة
كأسا من الشراب :

- لأننى لو فعلت فلن يصدقنى أى منكم !

ويعقب صبارته تلك صمت تام . حيث أنه لا يوجد
بين الحاضرين من يجد فى نفسه الوقاحة ليجادل
النبيل العجوز . وهكذا فإن عليه أن يستمر دون أن
يدفعه أحد ، فيقول بوقار :

- أوه ! اننى ماكنت لأصدق هذا أنا نفسى ان جاء
أى شخص وحكاى لى . ولكنه حقيقى . كنت قد جلست
على الشاطئ طيلة العصر ، ولم أصطد شيئا يذكر سوى
بضع عشرات من سمك السلمون وسلة مملوءة بأسماعك
البرش . . . وكنت على وشك اقناع نفسى بالاكتماء بهذا
والعودة الى البيت ، الا انى أحسست فجأة بجذبة قوية

فى خيط السنارة ، فظننت أنها ربما تكون سمكة صغيرة
أخرى وأوشكت أن أشدها ولكنى تلقيت صدمة .. لم
استطع أن أشد الخيط ! واستغرق منى الأمر نصف
ساعة .. نعم نصف ساعة ياسادة ! لاستخرج السمكة
من النهر وكنت أشعر بالسنارة وهى تكاد تنكسر فى أية
لحظة . أخيرا أخرجت السمكة ، وماذا تعتقدون أنى
وجدت ؟ كانت سمكة الحفش (١) ! نعم سمكة حفش تزن
أربعين رطلا تصطاد بسنارة ياسادة ! أجل ، من حقكم
أن تندهشوا .. كأسا أخرى من الويسكى لو سمحت !
ثم يستمر فى الحكاية فيخبرك بمدى الدهشة التى
انتابت كل من رأى سمكته وماذا قالت زوجته عندما
عاد الى البيت ، وعن أحاديث الجيران عن السمكة
الهائلة !

ذات مرة سألت صاحب فندق قريب من النهر عما
إذا كان لا يشعر بالتعب أحيانا من جراء الاسـتـماع
لحكايات الصيادين . فقال لى :

(١) سمكة الحفش هى نوع من السمك الكبير يستخرج
منها السمك الذى يصنع منه الكافيار .

— أوه ، كلا ، ليس الآن ياسيدى ، كانت تدهشنى قليلا فى البداية ، ولكنى وزوجتى نستمتع اليهم الآن طول اليوم ، أوه ، لقد تعودنا على هذه القصص ..
تعودنا عليها تماما .. !

أود أن أخص عليكم الآن حكاية شاب عرفته وكان من أكثر من عرفتهم صدقا .. لقد قرر هذا الشاب مرة ألا يزيد عدد الأسماك التى يصطادها — عندما يحكى عنها — إلا بمقدار خمسة وعشرين بالمائة فقط ، فكان يقول لنفسه :

— عندما أصطاد أربعين سمكة ، سأقول للناس أنى اصطدت خمسين .. وهكذا ، لكننى لن أكذب أبدا وأدعى أكثر من هذا ، لن أكذب لأن الكذب شئ كرهه !

ولكن ، ولسوء الحظ ، لم تصلح خطته — فى إضافة خمسة وعشرين بالمائة — فى كل الأحوال لأن الكبر عدد اصطاده فى أى يوم من الأيام لم يزد على ثلاث سمكات .. وبالطبع لا يمكن إضافة خمسة وعشرين بالمائة لهذا

العدد ٠٠ على الأقل لا يمكن هذا بالنسبة لحساب عدد الاسماك ٠٠ لهذا قرر صديقي أن يزيد النسبة الى ثلاثة وثلاثين وثلاث بالمائة ٠٠ ولكن حتى هذه النسبة وجد أنه من الصعب حسابها عندما يكون المحصول سمكة واحدة أو اثنين ٠ وعلى هذا فقد قرر أخيرا أن يزيد الكمية - في ادعاءاته - الى الضعف !

وقد ظل هذا الشاب يسير بهذه الطريقة لمدة شهرين ثم بدأ يشعر بعدم الرضا ٠ فلا أحد يصدق عذما يقول انه زاد عدد ما اصطاده - في الحقيقة - الى الضعف فقط ٠ وبهذا لم يجن أى مجد بهذه الطريقة ٠ ان محاولته ان يكون أكثر أمانة من الآخرين لم تضر بأحد غيره ٠ فمثلا عندما اصطاد ذات مرة ثلاث سمكات وقال انه اصطاد ستة ، أحسن بالغيرة عندما سمع رجلا - يعلم تماما انه لم يصطد سوى سمكة واحدة - سماعه يقول للناس انه قد اصطاد (ستة) من السمك ٠

وهكذا وفي النهاية ، قرر منذ تلك اللحظة قرارا جعله دستوره ، وهو أن يحسب كل سمكة يصطادها

بعشرة سمكات وأن يحرص دائما على أن يضيف عشر سمكات كبداية فمثلا ، اذا لم يكن قد اصطاد اى شيء فانه سيقول انه قد اصطاد عشر سمكات . وهكذا وبهذه الطريقة لايمكن للمرء ان يصطاد اقل من عشر سمكات باية حال من الأحوال . ثم واذا صادفه الحظ واصطاد سمكة واحدة ، فانه سيقول انه قد اصطاد عشرين ، والسمكتان ستصبحان ثلاثين والثلاثة اربعين وهكذا .

كانت فكرة بسيطة وقد وجدها ناجحة تماما . بل كان هناك اتجاه لتعميمها ولكن بعض كبار الصيادين عارضوها وقال انهم قد ينظرون اليها بعين الاعتبار ، ان تضاعف العدد وصارت لكل سمكة تحسب بعشرين سمكة !!

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل السادس عشر

معلومات أخرى عن فن صيد السمك

كثيرا مايكون من المثير ان تزور فندقا صغيرا من تلك الفنادق الصغيرة التي تقع على ضفاف النهر . وتتخذ لك مكانا عند البار . ومن المؤكد انك ستقابل واحدا أو اثنين من الصيادين الكبار سنا . - - - وسوف يحكون لك من القصص والحكايات عن الصيد خلال نصف ساعة مايصيبك بالاعياء لشهر بطوله .

كنت انا وجورج - لاني لا ادرى ماذا حدث لهاريس الذي خرج مبكرا عصر ذلك اليوم - لهذا كنت انا

وجورج والكلب مونتموريثسى وحدثنا .. فخرجنا
نتمشى وتوجهنا الى « والفجفورد » .. كان ذلك فى
مساء اليوم الثانى لنا فى ستريتلاى .. وفى طريق
عودتنا دلفنا الى فندق صغير على شاطئ النهر .

توجهنا الى البار وجلسنا امامه ، وكان ثمة رجل
عجوز يجلس عند البار ويدخن غليوننا طويلا منحنيا .
وبالطبع - وبعد برهة قصيرة - بدأنا نتجاذب اطراف
الحديث .

قال لنا ان اليوم كان جميلا ، وقلنا له ان الامس
ايضا كان جميلا ، ثم قال كل منا للآخر ان الغد ربما
سيكون يوما جميلا ايضا .. واضاف جورج ان
الحاصل هنا تنمو جيدا . ثم ، وبعد هذا الحوار القصير
لا ادرى كيف تطرق الحديث الى كوننا غرباء عن هذه
المنطقة والى اننا سوف نغادرها غدا فى الصباح .

مرت بعد هذا الحديث فترة صمت جالت فيها ابصارنا
انا وجورج - خلال القاعة ثم استقرت فى النهاية عند
صندوق زجاجى قديم يعلوه التراب معلق هناك فسوق

المدفأة وبداخله سمكة سلمون مرقطة هائلة . وقد حلتفى
هذه السمكة عجبا . ولأول وهلة ظننتها سمكة
الحفش (١) لفرط ضخامتها .

قال الرجل العجوز وقد لاحظ ماتحلق فيه :

— آه ! انها سمكة ظريفة . . اليست كذلك ؟

فهممت مندحشا :

— بل عجيبة جدا !

وسأل جورج الرجل العجوز عن وزنها كم يبلغ
بالتقريب ؟ فأجابه الرجل وهو يقوم ويرتدى معطفه :

— ثمانية عشر رطلا ونصف . أجل . . كان هذا
منذ ستة عشر عاما فى يوم مثل العاشر من الشهر
القادم تقريبا . عندما اصطدت هذه السمكة ! . . لقد
اصبكت بها تحت الكوبرى تماما . . قالوا لى انها
موجودة بالنهر ، فقلت لهم انى سأصطادها . . وقد

(١) الحفش : ينح الحار وسكون الفاء نوع من الأسماك
الضخمة يستخرج منها الكافيار .

فعلت ! .. انكم - على ما اظن - لاثرون أسماكاً بهذا
الحجم كثيراً هذه الأيام . عمت مساء ياسادة .. عمت
مساء ..

ثم خرج وتركنا وحدنا . ولم نستطع أن نرفع
أعيننا عن هذه السمكة . كانت بالفعل سمكة رائعة .
وكنا مازلنا نحلق فيها عندما دخل الحمال الذي كان
قد أوقف عربته - لتوه - أمام باب الفندق ودخل الى
صالة (البار) ونظر بدوره الى السمكة . فاستدار اليه
جورج قائلاً :

- سمكة سلمون ذات حجم جيد . اليس كذلك ؟

فرد عليه الرجل قائلاً :

- اه ! ربما ستقول انكم ياسيدى .. ربما لم
تكونوا هنا عندما اصطبغت هذه السمكة ؟

فاجبتاه في صوت واحد :

- لا .. اننا غرباء عن هذه المنطقة !

فقال الحمال :

٢٠٠١ - أنن كيف يقسنى لكم انن أن تعرفوا
القصة ؟ كان هذا منذ خمس سنوات عندما قمت
باصطياد تلك السمكة !!

فسالته مندهشا :

٢٠٠٢ - أوه ! أكنت أنت من اصطاد ذلك السمكة
العظيمة ؟

فقال الرجل العجوز خفيف المثل :

٢٠٠٣ - أجل ياسيدى ، اصطدتها من تحت برج الساعة
تماما ، فى عصر أحد أيام الجمعة . كنت قد خرجت
للصيد ، لأصطاد بعض أسماك البرش ، ولم أكن أفكر
مطلقا فى السلمون المرقط . وعندما رأيت هذه السمكة
المهائلة فى طرف سنارتى أصبت بصدمة حقيقية . . . فكما
ترون انها تزن ستة وعشرين رطلا . عمتم مساء ياسادة
. . . عمتم مساء !!

وبعد خمس دقائق أخرى دخل رجل ثالث ووصف
لنا كيف انه اصطاد هذه السمكة ذات مرة فى الصباح

الباكر ، ثم خرج . . . وبعدها دخل رجل فى منتصف
العصر تبدو عليه امارات الوداعة والهدوء وجلس هادئا
بجوار النافذة . .

وظللنا صامتين لفترة واخيرا استدار جورج نحو
الرجل وقال فى تأدب :

- استميتك عذرا ياسيدى . أرجو ان تغفر لنا
تطلعنا ، اننا غرباء عن هذه البلدة . وسأكون انا
وصديقى فى غاية الامتنان لو انك حكيت لنا كيف
استطعت ان تصطاد هذه السمكة السلمون المرقطة المعلقة
هناك !

فرد علينا الرجل مندهشا :

- لماذا ! من أخبركم انى - انا - من اصطاد سمكة
السلمون هذه ؟

فقلنا بسرعة :

- ان احدا لم يخبرنا ولكننا احسسنا بطريقة ما انك
انت الذى اصطدتها .

فرد علينا الرجل ضاحكا :

— انه لشيء مدهش .. مدهش جدا • لأنكم —
والحق يقال — قد وقعتم على الصواب بعينه .. أنا
فعلا اصطدتها • ولكن تخيلوا كيف كان ذلك ! ياسادتي
الأعزاء لقد كان حقا شيئا مذهلا !

ثم أخذ يحكى لنا كيف استغرق منه استخراجها
من الماء نصف ساعة كاملة ، وكيف انكسرت (بوصة)
سنارقه ، وأضاف أنه وزنها بدقة عندما عاد الى بيته
فوزنت أربعة وثلاثين رطلا !

خرج هذا الرجل بدوره ، وما أن غادر المكان حتى
دخل صاحب الفندق فحكينا له عن القصص المختلفة التي
سمعناها عن سمكته • وقد سره هذا كثيرا وغرقنا جميعا
في ضحك من القلب • ثم قال لنا الرجل الصديق وهو
مازال يضحك :

— هل قال لكم كل من « جيم بانى » و « جو ماكلز »
والسيد « جونز » و « بيلى موندروز » العجوز أنه هو
الذي اصطادها ! ها ! ها ! .. أن هذا جميل جدا ها !
ها ! .. أجل أنهم من النوع الذى من الممكن أن يصطاد

السمة ويعطوني اياها عن طيب خاطر لأضعها في
بارى ! .. انهم .. انهم ها ! ها !!

ثم بدأ يحكى لنا عن التاريخ الحقيقى للسمة .
وقد ظهر أنه هو الذى اصطادها بنفسه ، منذ عدة
سنوات ونصف عندما كان لا يزال صبيا . ولم تكن هناك
مهارة في الموضوع ، فالأمر كان حسن حظ بلا حدود .
ذلك الحظ الذى يلزم صبيا تغيب عن مدرسته بدون إذن
وخرج للصيد في عصر أحد الأيام المشمسة .. بقطعة
صغيرة من الخيط بأخرها سنارة ثبتت بعصا ..

وقال أن احضاره لسمة السلمون الهائلة معه
الى البيت قد أنقذه من علقه ساخنة بالسوط .. وحتى
مدير المدرسة قال أنها تستحق الهروب من عدة دروس
جيدة ..

وخرج الرجل من القاعة عند هذه النقطة في الحديث
ومرة أخرى استدرنا ببصرنا - أنا وجورج - نحو
السمة المعلقة على الحائط . كانت حقا سمة مذهلة
.. وكلما نظرنا إليها ازداد إعجابنا بها .. وقد



سمكة السلمون العجيبة !

أثارت جورج لدرجة أنه صعد فوق ظهر مقعد لينظر إليها عن كثب .

وانزلق المقعد فجأة وتشبث جورج بعنف بالصندوق الزجاجي لينقذ نفسه ، فسقط الصندوق منسحقا وفوقه جورج والمقعد . . !!

فصرخت محذرا وأنا اندفع نحوه :

– أرجو ألا تكون قد أذيت السمكة ، أم تراك فعلت ؟ !

فنهض جورج وهو يقول :

– أرجو ألا أكون قد فعلت .

ولكنه فعلها ، كانت سمكة السلمون قد تكسرت الى ألف قطعة، ربما كانوا تسعمائة قطعة فقط لأننا لم أحصها بدقة .

واندهشنا - أنا وجورج - لان سمكة السلمون
قد تكسرت الى كل هذه القطع الصغيرة ، بالطبع كان
هذا الامر سيكون مثيرا للعجب لو ان السمكة كانت
حقيقية، لكنها لم تكن كذلك في الواقع ،فسمكة السلمون
المرقطة ذات التاريخ لم تكن سوى تمثال من الجبس
صنع في باريس !

الفصل السابع عشر

من ستريتلای الى اوكسفورد

غادرنا ستريتلای في الصباح التالي مبكرين ..
وجدفنا حتى وصلنا الى كالهام ، وهناك قضينا ليلتنا
في ركن من النهر تستره الأشجار .

ان النهر في المسافة من ستريتلای الى والينجفورد
لا يعتبر مشوقا للغاية . وابتداء من كليف وعلى امتداد
سته أميال كاملة يسير النهر مستويا دون هويس واحد ،
واعتقد أن هذا هو أطول امتداد منبسط للنهر يمكن أن
تقابله فيما فوق مدينة (بيدينجتون) وقد استغله نادي
اوكسفورد للتجديف .

ولكن ، وبقدر ما يكون غياب الأهوسة مرضيا لمحبي
رياضة التجديف ، بقدر ما يكون محبطا لهؤلاء الذين
ينتشدون المتعة بالترحال عبر النهر .

أنا شخصيا مفرم بالأهوسة أشد الفرام .. أنها
تكسر رقابة المرحلة ، فكم هو ممتع الجلوس في القارب
في هدوء بينما هو يرتفع ببطء من الأعماق الباردة الى
امتداد جديد للنهر ذي مناظر جديدة ناضرة . أو وهو
يهبط الى أسفل هاربا من العالم الى أعماق مظلمة ، ثم
وأنت تنتظر حتى تنزلق البوابات الحديدية الثقيلة منفتحة
بينما يزداد ضوء النهار المتسرب خلال ثغراتها اتساعا
حتى ينفتح النهر باسم أمامك . وأنت تدفع قاربك
الصغير ليخرج من سجنه المؤقت الى أحضان التيمس
المرحبة بك مرة ثانية ..

وستجدهم قوما ظرفاء اقصد هذا الحارس السمين
لبوابة الهويس ، أو زوجته ذات النظرات الودية ، أو
ابنته ذات العيون البارقة .. ستجدهم ظرفاء وهم
يحدثونك بأخبار النهر بينما أنت تعبر الهويس . لسوف

تسعد بمقابلة قوارب أخرى لأناس آخرين يعبرون معك
الهويس : أوه ! .. ان التيمس ليفقد الكثير من سحره
ان هو خلا من تلك البوابات المكسوة بالأزهار والتي
نسميها أهوسة ..

ان الحديث عن الأهوسة ذكرنى بحادثة - قرية -
حدثت لى أنا وجورج ذات صيف فى ساحة هامبتون ..

كان يوما مجيدا ، حيث كان الهويس مزدهرا ..
وكما يحدث دائما على طول النهر ، كان هناك مصور
ياخذ صورا لنا جميعا ونحن نرقد فوق الماء الصاعد .

لم الحظ ما يحدث من البداية ، لهذا اندهشت
لرؤيتى جورج وهو يفرد سرواله ويصفف شعره
بسرعة ويضع (كابه) على مؤخرة رأسه .. ثم وقد
اكتسى وجهه بتعبير هو مزيج من الألفة والحزن
الخفيف ، ويجلس بوداعة محاولا اخفاء قدميه ..

كان اول ماخطر بذهنى هو انه ربما وقع بصره
على سيدة ممن يعرفهن وأخذت أدور ببصرى لأرى من
تكون .. كان كل الناس قد تحولوا فجأة الى تماثيل

حجرية ! .. كانوا جميعا قد وقفوا أو جلسوا متخذين
أكثر الأوضاع عجبا وغرابة .. كل الفتيات كن يبتسمن
.. وكن جميلات ومن يفعلن ذلك .. وكل الرجال
اكتست وجوههم بأعارات الجدية والنبيل .. !

وأخيرا ومضت الحقيقة فى عقلى وخشيت أن يكون
الوقت المناسب قد فاتنى . كان قاربنا هو أول قارب
فى العبور . ووجدت أنه من غير اللائق أن أفسد صورة
الرجل ، فاستدريت بسرعة واتخذت وضعا مناسبا عند
أنف القارب - أقصد مقدمته - حيث ملت بلا مبالاة فوق
مخطاف القارب لأكسب الصورة مظهرا حيويا فيه قوة .
ورتبت شعرى وجعلت خصلة تتدلى فوق حاجبى وأكسبت
وجهى تعبيرا جادا ممزوجا بمسحة سخرية قيل لى أنها
تناسبنى !

وبينما نحن نقف مستعدين للحظة الحاسمة . إذ
بى أسمع من يصيح خلفى قائلا :
- هيه ! راقب أنفك !

ولم أستطع أن أستدير للخلف لأرى ما يحدث أو

أعرف أنف من تلك التى يجب أن تراقب .. ولحت
بطرف عيني أنف جورج . كانت بخير - على الأقل لم
يكن بها ما يمكن اصلاحه ونظرت الى أسفل - الى انفى انا
- ولكنها هي الأخرى بدت كما يتوقع المرء أن تكون .

ولكن الصوت جاءنا اقوى هذه المرة :

- انظر الى أنفك أيها الغبي !

ثم سمعنا صوت آخر :

- ادفعا أنفكما للخارج .. ألا تتحركان انتما ..

انتما يامن بصحبة الكلب !

لم أجرو - لا انا ولا جورج - على الاستدارة لأن
أصابع الرجل كانت على زر الكاميرا فى وضع
الاستعداد .. والصورة قد تلتقط فى أية لحظة ..
ولكن ، هل كنا نحن من ينادون عليهما ؟ وماذا
أصاب أنفينا ؟ وماذا علينا أن ندفع أنفينا للخارج ؟
.. الآن صار كل من فى الهويس يصرخون ، وصاح
صوت قوى من الخلف قائلاً :

- انظر الى قاربك ياسيدى ، انت يامن ترتدى

كأيا أحمر في أسود ، ان لم تسرعا فان جثثكما هما
اللتان ستظهرا في الصورة .

التفتنا بسرعة فالفينا مقدمة قاربنا وقد انحسرت
تحت المزلاج الخشبي للهويس بينما كان الماء يرتفع رافعا
كل جوانب القارب معه تاركا مقدمته غارقة . . كان من
الممكن أن نلقى الهلاك في اللحظة التالية لولا أننا أخذنا
مجدافا وفي سرعة البرق دفعنا جانب الهويس دفعة
قوية حررت القارب وألقت بنا منبطحين على ظهرينا ! . .
ولم نظهر - أنا وجورج - بشكل جيد في الصورة
. . بالطبع كان من سوء حظنا أن الرجل التقط الصورة
القعسة في اللحظة التي كنا فيها منبطحين على ظهرينا
وعلى وجهينا تعبير أبله . . بينما كانت أرجانا تتحرك
بجنون في الهواء .

وهكذا كانت أقدامنا هي بالتأكيد البطل الرئيسي في
الصورة . في الحقيقة هي لم تترك مكانا إلا للقليل
الذي يظهر إلى جوارها فقد كانت تملأ المواجهة تماما
وخلفها يمكنك أن ترى أجزاء صغيرة من القوارب
الأخرى التي كانت بجوارنا . .

وبالطبع كان كل ما عداها يبدو قافها وصغيرا الى
جوار أقدامنا التي احتلت أهم ركن في الصورة . لهذا
شعر بقية الناس بالخجل ، ورفضوا أن يشتروا نسخا
من تلك الصورة . .

حتى أن أحد اصحاب القوارب البخارية - والذي
كان قد أوصى بست نسخ - رفض أن يتسلمها أو أن
يدفع بنسأ واحدا من ثمنها عندما رأى النتيجة النهائية
للتصوير . وقال أنه من الممكن أن يأخذ هذه الصور
لو أن أى انسان يستطيع أن يريه ولو جزءا من قاربه ،
ولكن أحدا لم يستطع فقد كان قاربه يختبئ في مكان
ما خلف قدم جورج اليسوى !

وغلف الموضوع كله جو من التعاسة . فقد طالبنا
المصور أن يشتري كل منا - أنا وجورج - ستة نسخ
من الصورة بما أن تسعة أعشار الصورة يخصصنا نحن
ولكننا رفضنا وقلنا أننا لم نكن نريد على الإطلاق صورة
بالحجم الكامل ولكننا كنا نحب فقط أن نلتقط صورتنا
ونحن معتدلين . .

أخذت الأرض - حول النهر من والينجفورد الى
دوشستر - تزداد امتلاء بانتلال الجميلة وتزداد جاذبية
.. وتقع دو شستر على مسافة نصف ميل من النهر ،
ومن الأفضل لو نحن تركنا القارب بالقرب من الهويس
ثم نسير عبر الحقول في تلك المنطقة ، وهي بقعة هادئة
وجميلة وقديمة . تقبع في صمت وسكون و .. نعاس .

يتخذ النهر حول « كليفتون هابدن » - وهي قرية
رائعة الجمال هادئة قديمة الطابع وتحققها الأزهار -
منظرا غنيا رائعا .. وفي تلك القرية فندق صغير قديم
يقع الى اليمين من الكوبرى على أطراف القرية ، وهذا
الفندق له شكل كتاب الحكايات من الخارج وداخله
أشبه - هو الآخر - بالحكايات القديمة !

في الحقيقة هو لا يمكن أن يكون مكانا لائقا ببطله
من بطلات القصص الحديثة . ان بطله الرواية الحديثة
«طويلة كالهة» وهي دائما ترتفع بقامتها الى اقصى ارتفاعها
.. وفي هذا الفندق القديم الطابع ، لابد أن رأسها كان
سيرتطم بالسقف عند كل محاولة عنها لتفعل هذا .

استيقظنا مبكرين في صباح اليوم التالي اذ كنا نود
ان نصل أوكسفورد بحلول العصر . . انه لمن المدهش
مدى التبكير في الاستيقاظ عندما ننام في الخلاء . . ان
المرء لا يطعم في خمس دقائق من النوم أكثر مما ينام
راقدا ملفوفا ببطانية وقد توسد حقيبة جلدية وكأنه ينام
على فراش من ريش النعام . انتهينا من تناول الاقطار
وعبرنا هويس كليفتون في حوالى الثامنة والنصف
صباحا .

ومن كليفتون وحتى بلوغ الهويس التالى ، كانت
الأرض حول النهر منبسطة وغير مشوشة . ولكن بعد
هذا يتحسن المنظر ثانية . لدرجة ان الهويس والطاحونة
عند (افلاى) يعد ان من الموضوعات المفضلة لدى
الرسامين المحبين للنهر . . ولكن المنظر الحقيقى يبدو
أقل جمالا من صورته . قليل جدا من الأشياء في هذا
العالم التى تبدو على نفس بهاء صورتها وجمالها . .
عبرنا هويس « لفلاى » في حوالى الثانية عشرة
والنصف ، ثم نظفنا القارب وأعدنا كل شئ للرسو
واندمجنا في العمل طوال الميل الاخير . .

وتعتبر المسافة بين الفلأى وأوكسفورد أصعب جزء
فى النهر على ما أعلم . . فانت فى حاجة لأن تكون
مولودا فى هذه البقعة كى تحسن فهمها . فبرغم أنى
جئت الى هنا عدة مرات ، الا أنى حتى الآن لاأستطيع
السيطرة عليها . . ففى البداية ستجد التيار يدفعك
الى الضفة اليمنى للنهر ثم يتغير فيدفعك للضفة
اليسرى . . ثم يسحبك الى الوسط ويجعلك تدور حول
نفسك ثلاث مرات ثم يدفعك للامام ثانية ودائما ينتهى
بمحاولة تمزيقك اربا بآن يدفعك للاصطدام ببارجة !

ونتيجة لهذا التخطيط وقعنا فى طريق عدة قوارب
أخرى وبالطبع قرع أسماعنا عدد لا بأس به من الألفاظ
البذيئة . .

انى لا أعرف سببا لهذا ، ولكن دائما ماتكون الحالة
النفسية لراكب النهر سيئة جدا . ان القليل من المشاكل
التي تواجهك وانت على البر ولا تلقى اليها بالا قد
تجعلك فى منتهى الغضب عندما تكون فى قارب على
صفحة النهر . . فلأنا مثلا اذا تصرف أى من جورج

أو هاريس بحماقة أعاصي ونحن على البر ، غالبا ما أقابل
تصرفهما بابتسامة هادئة . ولكنهما عندما يتصرفان
بطريقة غبية ونحن على صفحة النهر . فأننى أواجههم
بأقذع الألفاظ . وعندما يعترض طريقى أحد القوارب
أشعر برغبة فى أن أحمل مجدافى وأقتل به كل من بهذا
القارب من أشخاص !

ان هواء النهر غريب على الحالة النفسية يجعل
- فيما أعتقد - أكثر الناس هدوءا ووداعة على البر .
يصبحون أكثر الناس تعطشا للدماء عندما يصبحون
فى قارب فوق صفحة النهر . .

الفصل الثامن عشر

القوارب النهرية

قضينا يومين سعيدين جدا في أوكسفورد وأن كانت شوارع المدينة مـلأنة بالكلاب . حتى أن مونتمورينسي خاض إحدى عشرة معركة في اليوم الأول . وارتفع عدد المشاجرات الى أربع عشرة في اليوم الثاني ، حتى ظننا أن روحه ستصعد الى بارئها . .

يعتبر استنـجار قارب والتجديف به عبر النهر في أوكسفورد من الرياضيات المحببة حتى بين أكثر الناس ضعفا وكسلا . . وبالطبع هي النزهة المفضلة لدى هؤلاء الذين يتمتعون بقدر عال من النشاط والحياة .

وليس من المستحب دائما أن تجدف مع التيار ، فقد تلقى
قدرا أكبر من الرضا لو أنك جددت ضد التيار ،
واستطعت رغم ذلك أن تشق طريقك في النهر هذا على
الأقل ماكنت أشعر به وأنا أراقب جورج وهاريس وهما
يجاهدان في التجديف ضد التيار بينما أنا أمسك المدفة
لهما .

ولهؤلاء الذين يفكرون في جعل أكسفورد نقطة
البداية لرحلتهم النهرية أقول : «خذوا قواربكم الخاصة»
فصحيح أن القوارب التي تؤجر لهذا الغرض فيما فوق
مدينة « مارلو » تعتبر - أجمالا - قوارب جيدة ، وهي
محكمة الحماية ضد الماء ، وعادمت تستخدم بعناية
فنادرا ماتتكسر أو تفرق . .

كل هذا صحيح وجيد ، إلا أنها ليست جميلة
المظهر وغير مزخرفة . أن القوارب التي تؤجر في هذه
المنطقة ليست من النوع الذي يمكنك أن تزهو بنفسك
فيه أو يشعرك بأهميتك . . أنها تضع حدا في الحال لأي
شعور من هذا القبيل . وأعتقد أن هذه هي الفضيلة
الاساسية بل الوحيدة فيها .

ان الرجل فى القارب المستأجر يفرض عليه أن يكون متواضعا وخجولا . فهو يسير بقاربه على الجانب المظلل تحت الأشجار . كما يجب أن يقطع معظم سفره فى الساعات الأولى من الصباح ، أو فى الساعات الأخيرة من الليل ، عندما لا يكون هناك كثير من الناس لينظروا اليه . . وان صادف هذا الرجل أحدا يعرفه فإنه سرعان ما يتجه نحو الشاطئ ويختبئ . خلف الأشجار . . !

اننى أذكر انى كنت واحدا فى جماعة قررت استئجار قارب نهري - ذات حديف - لتمضية بضعة أيام فى نزهة نهريه . . ولم يكن أحد منا قد رأى قاربا من القوارب النهريه التى تؤجر من قبل ، ولم نتعرف عليها عندما شاهدناها لأول مرة .

كنا قد أرسلنا برقية بأسمائنا نطلب قاربا للأيجار ، وعندما توجهنا حاملين حقائبنا الى مرسى القوارب ، وأعلنا عن أسمائنا قال لنا صاحب المرسى :

- أه ، أجل أنتم الجماعة التى أرسلت لى تطلب

قارباً • كل شيء جاهز وعلى مايرام •• يا جيم احضر
لهم • فخر التيمس • !

غاب الصبي عن ابصارنا ثم عاد بعد خمس دقائق
وهو يجاهد في قطعة خشبية قديمة بدت وكأنها انتزعت
من مكانها في التو ، وبدت وكأنها انتزعت باهمال
فأصيب باصابات لاداعي لها •

كانت اول فكرة خطرت ببالي هي ان هذا الشيء
هو أحد الآثار الرومانية ، اثار ماذا ؟ لا أعلم •• ربما
كانت ما تبقى من تابوت قديم • فالمنطقة المحيطة بأعمال
نهر التيمس غنية بالآثار الرومانية • ولهذا بدت لى
الفكرة معقولة وقوية الاحتمال •• ولكن أحد أصحاب
العقول المستنيرة في جماعتنا - وكان عالماً - اعترض
على الفكرة وقال انه يبدو بجلاء حتى لذوى الذكاء
المحدود ، ان هذا الشيء الذى عثر عليه الصبي كان
بقايا حوت •• وأشار الى عدة أشياء موجودة في هذه
البقايا تؤكد انها لحوت !!

ولكى نضع حد لهذا الجدل سألنا الصبي وقلنا له :

- لا تخف .. فقط أخبرنا بالحقيقة هل هذه بقايا

عظام حوت أم أنها آثار تابوت روماني قديم ؟ !

فاجابنا الصبي بأن هذا الشيء انما هو " فخر

التيمنس " .

وفي البداية اعتقدنا أن هذه الاجابة كانت مداعبة

من الصبي لنا فضحكنا ونفحه احدا بنسين مكافاة على

ظرفه .. ولكنه عندما أصر على تكرار النكتة طويلا بدأنا

نضيق به وقال له قبطاننا بحدة :

- تعال هنا يا بني .. تعال .. كفانا ماسمعنا

من هراء ، خذ هذا البرميل بعيدا واحضر لنا قاريا

حقيقيا !

وجاءنا صانع القوارب بنفسه وقال لنا كلمته

كخبير ، فقال أن هذا الشيء كان بالفعل قاريا .. بل

هو في الحقيقة القارب الذي تم اختياره ليحملنا في

رحلتنا عبر النهر .

واعترضنا على هذا بشدة وقلنا له اما كان من

الممكن على الأقل أن تغسله أو تطليه بلون ابيض لتداری

قبح منظره . وحتى نستطيع أن نفرق بينه وبين قطعة
من حطام سفينة . . لكن الرجل لم يكن يرى فيه أى
عيب ، بل أنه ضاق بتعليقاتنا هذه وقال أنه قد تخير
لنا أفضل قارب يمكنه تقديمه . . وكان يتصور أننا يجب
أن نكون أكثر شكرا وامتنانا له من ذلك . وأضاف أن
« فخر التيمس » هذا قد استخدم وهو على حالته هذه
طوال الأربعين سنة الماضية ولم يحدث - على حد
علمه - أن اشتكى منه انسان . وهو صانع القوارب -
لا يدري لماذا يجب أن نكون نحن أول من يفعل ذلك . .

ولم نجادله أكثر من هذا .

وبدأنا فأحكما تثبيت - هذا الشيء الذى يدعى
قاربا - بواسطة قطع من السلك ولصقنا ورق الحائط
على الأجزاء السيئة المظهر منه ، ثم تلونا صلاتنا
وخطونا داخله . .

لقد كلفنا استئجار هذا القارب لستة أيام خمسة
وثلاثين شلنا بينما كان يمكننا أن نشتريه من أى فرد
بأربعة شلنات فقط !!

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الفصل التاسع عشر

رحلة العودة

تغير الطقس فجأة في اليوم الثالث .. وبينما كنا نُشرع في رحلة العودة من أوكسفورد كانت السماء تمطر بغزارة .

ان النهر ليصبح مجرى ذهبيا ساحرا حينما تلمع أشعة الشمس الساطعة على أمواجه المتراقصة .. وعندما تلون جذوع الأشجار الرمادية بلون الذهب .. وعندما تضع الشمس ابتسامتها الدافئة على وجه الغابات المظلمة الباردة وتلون الجدران والقناطر بلون الفضة .. وتضفي بريقها على كل قرية صغيرة ، وتبعث

الجمال في كل مر أو حقل صغير .. وعندما تشرق
الشمس مريحة فوق أشعة المراكب وتحيل الهواء الى
نسمات ناعمة حنون *

ولكن النهر يصير مكانا حزينا خاليا من البهجة
حينما تكسوه الظلمة والبرودة .. وعندما ينهمر المطر
بلا توقف فوق أمواجه الداكنة البطيئة بصوت ضعيف كأنه
صوت امرأة تبكي في حجرة مظلمة مجهولة .. بينما
الغابات كلها سوداء صاخبة يلفها الحزن .. والأشجار
تقف على ضفة النهر وكأنها أشباح .. أشباح خرساء
ذات عيون وقحة كأنها من صنع الشيطان !

ان ضوء الشمس هو دماء الحياة تسري في شرايين
الطبيعة .. بل ان أعنا الأرض لترمقنا بعيون غاب بريقها
وانطفأ نور الحياة فيها ان هي فقدت أشعة الشمس ..
وهي - الأرض - تسبح علينا حزنها فنصير بدورنا
محزونين .. وهي لا تبدو مهتمة بنا أو حتى تعرفنا -
نحن أبناءها - فنصير كآرملة رحل عنها زوجها الذي
تحبه .. يلعب أطفالها يدها ويتطلعون الى عيونها لكنهم
يعودون بلا ابتسامة منها *

جدفنا طوال هذا اليوم تحت الأمطار ويا له من
مجهود تعس . . في البداية صممنا على أن نتمتع
بالتجديف تحت المطر . وقلنا أنه تغيير وأننا كنا نود
أن نرى النهر في كل حالاته ، بالإضافة إلى أننا لم
نكن نتوقع أو نحب أن تظل الشمس مشرقة في كل أيام
الرحلة وقلنا : أن كل شيء في الطبيعة جميل حتى
دموعها !

وبالفعل حاولنا أن نستمتع بالعمل في هذا الطقس
- أنا وهاريس - لبضعة ساعات . . بل أننا أخذنا نغني
أغنية عن حياة الرحالة وكيف كانت هذه الحياة -
المقترحة على الموحص والأمطار بنفس القدر الذي
تحيا فيه أشعة الشمس الدافئة - كيف كانت جميلة
ومثيرة . . وكيف أن الرحالة كان يستمتع بهطول المطر .
وكم منحه هذا المطر من خير ، وكيف كان يضحك من
هؤلاء الناس الذين لا يحبون الأمطار . . أما جورج
فقد واجه الموقف بجدية أكثر فأسرع يمسك بمظلته
ويفتحها لتقيه بعض الشيء من المطر المتساقط .

وضعنا على القارب غطاءه قبل الغداء ، واحتفظنا

به هكذا طوال عصر اليوم تاركين فتحة صفيحة عند مقدمة القارب حتى يستطيع أحدنا أن يجذف منها ويرقب الطريق . وقطعنا ونحن على هذه الحال مسافة تسعة أميال قبل أن نتوقف عند حلول المساء .

انى لا أستطيع أن أؤكد - بأمانة - أننا قضينا أمسية سعيدة . . فالامطار كانت تنسكب بلا توقف وكل شيء فى القارب صار مبتلا . ولم يكن العشاء طيبا . . فاللحم البارد لا يكون شهيا عندما لا تكون جائعا . . وأحسبنا بأننا كنا نود لو تناولنا أكلة دافئة فى مطعم انيق ، حتى أن هاريسلقى بقطعة اللحم البارد الى مونتمورينسى ، الذى شعر باهانة بالغة من جراء هذه الفعلة فترك قطعة اللحم فى كبرياء وتركنا وجلس وحيدا عند طرف القارب الآخر .

قضينا ساعة ونصف بعد العشاء نلعب الورق الى أن شعرنا بالملل ثم خلطنا كأس شراب لكل منا وجلسنا نتحدث . . حكى لنا جورج عن رجل كان يعرفه ، كان يعبر النهر منذ عامين وحدث أن نام فى الخلاء فى قارب

رطب في ليلة شبيهة بليلتنا هذه تماما . فأصيب بحمى ولم يكن هناك ما يمكن أن ينقذه منها فمات متأثرا بالأمه العظيمة . بعد مرض استمر عشرة أيام . . . وأضاف جورج أن الرجل كان في ريعان الشباب وأنه كان يستعد للزواج . . . وأخيرا قال جورج أن هذا الحدث كان من أكثر الأشياء حزنا في حياته وأنه لن ينسأه طول حياته إلى أن يموت ويفارق هذا العالم .

وذكرت لكم القصة الحزينة هاريس بصديق من أصدقائه كان جنديا . . . نام في الخلاء تحت غطاء في ليلة مطيرة في (ألدرشوت) . . . ليلة شبيهة بليلتنا هذه تماما . . . قال هاريس :

— . . . واستيقظ صديقي في الصباح وقد تيبست عظامه حتى أنه لم يعد يستطيع أن يمشي مشية صحيحة بعد هذه الليلة .

وأضاف هاريس أنه سوف يقدمنا إلى صديقنا هذا عندما نعود إلى لندن ولكم ستدعى قلوبنا لرؤية هذا الشاب المسكين وهو لا يمشي بطريقة صحيحة !

وبالطبع قنادنا هذا الكلام الى بعض الأحاديث
الطريفة عن متاعب الإصابة بالبرد . فقال هاريس أنها
ستكون معضلة كبيرة لو أن أحدنا أصيب بالبرد فنحن
فى بقعة بعيدة عن أى طبيب .

وبعد هذه الأحاديث شعرنا بحاجة ماسة الى شيء
مبهج وظريف ، وفى لحظة ضعف منى اقترحت على
جورج أن يخرج آلة البانجو ويسمعنا بعض الأغنيات
الهزلية ..

ولم يكن جورج فى حاجة لآى حث فقد أخرج الله
فى الحال وبدأ يغنى لنا أغنيته :

.. « العينان السوداوان الحبيبتان » ..

.. « عينان براقتان جميلتان »

كنت دائما أتصور « العينان السوداوان » أغنية
هزلية عادية .. حتى هذا المساء ، ان الحزن الذى
استطاع جورج أن يستخرجه منها أذهلنى حقا .

وصارت الرغبة التى تلح علينا - أنا وهاريس كلما

أمن جورج في أغنيته هي أن يرتقى كل منا على صدر
الآخر وينخرط في البكاء • ولكننا - وبمجهود عظيم -
حبسنا دموعنا وجلسنا نستمع في صمت •

وبعد أن وصل جورج إلى المقطع الأخير حاولنا
بالم عظيم أن نشعر أنفسنا ببعض البهجة ، فلما
كؤوسنا واشتركنا في الغناء ، قبدأ هاريس بصوت
مرتعش وتبعته أنا •

عيتان سوداوان حبيبتان

ياللروعة •• يا للعجب •• !!

وهنا توقفنا عن الغناء ففي حالتنا البائسة تلك لم
يكن من الممكن أن نستمر • كان هاريس يركسي كطفل
صغير ، حتى مونتمورينسي أخذ يلبيح حتى ظننت أن
فكة يكاد يتحطم ا

وحيث أنه لم يكن ثمة ما تفعله فقد قررنا أن ننام ••
وهكذا خلعنا ملابسنا وتكورنا في قاع القارب لمدة
ثلاث أو أربع ساعات ، وقد حاولنا استجلاب النوم لكننا

لم نحظ الا بنوم متقطع حتى صارت الساعة الخامسة
تماما . وعندها استيقظنا جميعا وتناولنا افطارنا .
وكان اليوم التالي كسابقه . لم تكف السماء عن
ارسال أمطارها وجلسنا ملتفين بمعاطف المطر قابعين
تحت غطاء المقارب الذى اخذ ينساب فوق صفحة الماء
بيطء .

حاول اخذنا - لا اذكر الآن من كان على وجهه
التحديد وان كنت اظنه انا شخصا - حاول ان يغنى
اغنيات لا معنى لها عن الروح الفتية للطبيعة وعن
الاستمتاع بالمطر . . وبالطبع لم يكتب لهذه المحاولة
اى نصيب من النجاح .

كان هناك أمر اتفقنا عليه جميعا ومنذ البداية الا
وهو . أنه مهما حدث فسنواصل رحلتنا حتى النهاية
مهما كانت تلك النهاية حزينة او مؤلمة . . لقد خرجنا
لنستمتع برحلة لمدة اسبوعين على النهر . ولسنوف
نقضى الأسبوعين كاملين حتى لو قتلنا هذه الرحلة
فى النهاية . . انها لو فعلت ذلك فستكون نهاية حزينة
بالنسبة لأقاربنا . ولكن لاحيلة لأحد فى هذا . .

وقال هاريس مشجعا :

- لم يبق سوى يومين ، ونحن شباب وأقوياء
وقد تمر من كل هذا بخير وسلام !

وعندما بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبا ..
بدانا نناقش خططنا للمساء . ولما كنا قد جاوزنا بلدة
« جورينج » بعليل فقد قررنا أن نستمر في التجديف
حتى نصل الى « بانجبورن » حيث نقضى ليلتنا .

وتمتم جورج :

- أه .. سنقضى ليلة أخرى سعيدة !

وجلسنا معا نفكر في تلك الليلة ، كان يجب أن نصل
بانجبورن في الخامسة ، ثم ننتهى من تناول وجبتنا
المسائية في السادسة والنصف - مثلا - وبعد هذا
يمكننا أن نتمشى تحت الأمطار حتى موعد النوم أو أن
نجلس في حانة صغيرة ذات ضوء شاحب دون أن نفعل
شيئا على الإطلاق !

وفي اللحظة التالية - وعلى حين غرة - اندفع
جورج صائحا وهو يرمق القارب بغضب وغیظ :

— اسمعوا ، اذا لم نكن قد عقدنا العزم بعد على الموت في هذا القابوت البارد .. فانه يمكننا اللصاق بقطار لندن الذي يتحرك بعد الخامسة من محطة (بانجيورن) حيث يمكننا ان نصل لندن في جو مريح ودافئ ، ونقضى امسيتنا في مسرح « الهمبرا » ثم نتناول عشاء خفيفا قبل ان نعود للبيت !

ولم يفتح اى منا فمه بعد هذا .. وصار كل منا يرى افكاره غير البريئة وقد انعكست على وجهى ولبيقه .. وفي صمت اخرجنا حقائقنا من القارب ولحصناها ونظرنا في كل اتجاه على النهر لتتأكد من ان احدا لايرانا ولم يكن هناك احد غيرنا !

بعد هذا بعشرين دقيقة ، كان هناك ثلاثة اشباح يزحفون في الظلام يتبعهم كلهم عطاطنى الرؤوس خجلا وهم خارجون من القارب في طريقهم الى محطة القطار وكانوا يرتدون احذية جلدية سوداء متسفة ، وكأنت ستراتهم وسراويلهم في غاية اللقازرة .. وكانت معاطفهم رثة ممزقة .. ويعمل كل منهم مثلة في يده !

لم تكن لدينا الشجاعة لنقول الحقيقة لحارس
القوارب في مرسى بانجيورن ، فكذبنا عليه وتركنا له
القارب بكل محتوياته تحت مسؤوليته قائلين أننا نريده
جاهزا للبحار في تمام التاسعة صباحا ، وإذا . . إذا
- هكذا قلنا-إذا حدث أى شيء يمنع مجيئنا في الصباح
فسنبعث له رسالة بهذا . .

وصلنا لندن في الساعة مساء . وعلى الفور دلفنا
الى مطعم صغير - كنت أعرفه - حيث تناولنا وجبة
خفيفة ثم تركنا مونتمورينسى هناك بعد أن طلبنا اعداد
عشاء لنا في العاشرة والنصف ثم خرجنا في طريقنا
الى مسرح الهامبرا . .

وعند المسرح اكتشفنا أننا محط الأنظار . . في
البداية ظن الرجل القابع في مكتب التذاكر أننا (السحرة
العالميون القادمون من جبال الهمالايا) . . وقال لنا
أننا يجب أن ندخل من باب الممثلين . وأضاف : أننا
قد تأخرنا عن موعدنا نصف ساعة . . الا أننا تمكنا
أخيرا من اقناعه أنه قد أخطأ في ظنه وأننا لسنا سحرة.

فأخذ منا النقود وأعطانا التذاكر وتركنا نمر من
الباب ..

وفي داخل قاعة المسرح نلنا مزيدا من النجاح .
فقد كانت وجوهنا التي لوحتها الشمس وملابسنا
الغريبة محط نظرات الاعجاب من الحاضرين . أوه ..
كم كانت لحظات مجيدة !

غادرنا المسرح مبكرين واتخذنا طريقنا الى المطعم
حيث كان العشاء معدا في انتظارنا . وقد استمتعت
بهذا العشاء كثيرا .. فطوال عشرة أيام ظللنا نحيا على
اللحم البارد والكعك والخبز الجاف والمربي .. أما
الآن فرائحة النبيذ .. والصلصة الفرنسية ورؤية
الملابس النظيفة وأرغفة الخبز الساخنة الطويلة .. كل
هذه الأشياء كانت تطرق باب معذاتنا وكأنها زوار
مستحبون .

أكلنا وشربنا في صمت حتى حانت اللحظة التي
عندها مددنا أرجلنا تحت المنضدة في استرخاء
واخيرا سكوت صوت الشوك والسكاكين وتنفسنا في
شعور بالراحة والسعادة ..

بعد هذا انحنى هاريس - الذى كان يجلس بجوار
النافذة - واطل على الشارع من جانب الستارة ..
كان الشارع يبدو مظلماً بينما لهب المصابيح الزيتية
يتراقص مع الريح .. والمطر يتساقط فى البرك التى
صنعتها المياه من قبل .. والقليل من الناس المبتلين
بماء المطر يهرولون وقد انكمشوا تحت مظلاتهم .. فقال
هاريس وهو يمد يده لياخذ كأسه :

- لقد استمتعنا برحلة طيبة يا أصحاب .. وانى
لأقدم عميق شكرى لأبينا العجوز « نهر التيمس » .. الا
أنى وفى نفس الوقت أعتقد أننا قد فعلنا الصواب
بتخلينا عن تكملة الرحلة فى الوقت المناسب .. فهيا ..
وهلموا نشرب نخب ثلاثة رجال يجلسون بعيداً عن
القارب !

وقف مونت مورينسى على قدميه الخلفيتين ونظر من
خلال النافذة الى الليل المطير ثم أطلق صيحة حاسمة
قصيرة تعلن موافقته الحارة على هذا النخب .. !!

الفهرس

مقدمة.....	٩
التخطيط لقضاء العطلة (١).....	١١
التخطيط لقضاء العطلة (٢).....	٢٣
دراسة احتياجات الرحلة.....	٣٥
مشاكل الطعام وتحزيم الأمتعة.....	٤٧
..وبدأنا الرحلة.....	٦٧
التيه في قصر هامبتون.....	٨١
عن الأغنيات الهزلية.....	٨٩
الليلة الأولى في القارب.....	١٠٥
الصباح التالي.....	١١٩

١٣٩.....	مغامرات مع قارب وعلبة من الصفيح
١٤٩.....	مونتيمور يلنسى
١٦٣.....	سر اختفاء هاريس واليخلى الأيرلندى
١٧٩.....	هاريس وحيدا فى القارب
١٩٥.....	رياضة التجديف
٢١٣.....	فن صيد السمك
٢٢٧.....	معلومات أخرى عن فن صيد السمك
٢٣٩.....	من ستريتلاى إلى أكسفورد
٢٥١.....	القوارب النهرية
٢٥٧.....	رحلة العودة

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

رقم الايداع ١٠٥٦٠ / ٩٧

الترقيم الدولى X - 5444 - 01 - 977 I.S.B.N.